كتاب الهلال

عبقرية خالد

تأليف

عباس محمود العقاد

سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها . اميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

.....

العدد ١٥ ــ رمضان ١٣٧١ ــ يونيو ١٩٥٢

No. 15 — June 1952

مركز الادارة

دار الهلال ع ١٦ شارع محمد عز العرب بك
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٧٩٨١٠ (تسعة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ــ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ــ سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية او لبنانية ــ الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش صاغ ــ فى الامريكتين ٥ دولارات ــ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/ ٣٠ شلنا

عبقرية خالد

اهداءات ٢٠٠٠

المرحوم د. عبد المنعم حسين الجمال

مدير مستشفى حميات الإسكندرية

عباس محمود العقاد

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

البادية والحرب

كان قتيبة بن مسلم قائدا من نوابغ القـــادة المعدودين الذين انجبتهم الأمة العربية فى صدر الاسلام ..

وكان يلى خراسان لملوك الدولة الأموية ، فخرجت بهـا خارجة أهمته ، فقيل له : « ما يهمـــك منهم ؟ وجه اليهم وكيع بن أبى مسعود فانه يكفيكهم » فأبى ، وقال : « لا.. ان وكيعا رجل به كبريحتقر أعداءه . ومن كان هكذا قلت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غرة ... »

وهذه كلمة من كلمات القائد العربى تنبىء عن كثير .. تنبىء عن ملكة القيادة فيه ، وتنبىء عن ملكة السيادة فى الأمة التى نشأ منها واستطاعت بها أن تسـوس الأمم فى الحرب والسلم ، سياسة للنجاح وللبقاء ..

فالحق أن شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة فيهـا جميعا ، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على سبر قوته وسبر قوة خصمه . وكل ما عدا ذلك فانما هو ترتيب لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التى ينازلهـا أن تصنعه ، أو هو تنظيم للأهبة والحيطة بين الفريقين فى المكان الذى يتلاقيان فيه

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسـباب كثيرة : منها ضعف العقيدة ، واختلال النظام ، ونقص القيـادة ، وانحلال الترف وتفرق الآراء .. ولكن البلاء الأكبر انما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل والاســـتخفاف بالخصم المقاتل . فانتصر العرب لأنهم ظنوهم لا ينتصرون ولا يعتزمون الانتصار ، وكان الاستخفاف والاهمـال شرا على تلك الدول المتصلفة من الاستهوال والفزع . بل كان

الاستخفاف والاهمال سببا لانقلابهم آخر الأمر الى استهوال يخذل المفاصل وفزع يفت فى الأعضاد ، فاجتمعت عليهم البليتان من سوء التقدير ، ولم تنفعهم قلة المبالاة بالعدو ولا فرط المبالاة به بعد الأوان

كانت دولة الفرس لا تنظر الى البادية العربية الا نظرة السيد المبجل الى الغوغاء المهازيل الذين يحتاجون اما الى العطاء واما الى التأديب ، وبلغ من طغيان كسرى حين جاءته الدعوة المحمدية أن بعث الى النبى العربى بشرذمة من الجند تأتيه به فى الأصفاد ! وبلغ من طغيان جنده عامة وخاصة أنهم كانوا يأنفون أن يقرنهم أحد بالعرب فى معرض من المعارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيدة • فاتفق في بعض وقعات العراق أن زعيما عربيا من جيرة الفرس أقبل على القائد الفارسى مهران بن بهرام ، ليمده بأبناء قبيلته ويعينه على خالد بن الوليد وجنده • فقال له: « ان العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالدا ! » ، فجاراه القائد الفارسى مجاملة وخدعة ليستخلص منه أقصى العون والنجدة ، وقال له : « صدقت لعمرى ! لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا فى قتال العجم » •• فغضب أتباعه لمجاملته هؤلاء القوم الذين يعينونهم ويقاتلون فى صفوفهم، وسألوه: « كيف تقول ما قلت لهذا الكلب؟ » • •فلم يهدأوا عنه حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرر بهم ، وقال لهم: « دعونى فانى لم أرد الا ما هو خير لكم وشر لهم •• فان كانت لهم على خالد فهى لكم • وان كانت الأخرى لم يبلغوكم ـ أى المسلمين ـ حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون •• »

وسخفوا فى طلائع وقعة « أليس » فلم يحفلوا بجيش

خالد الزاحف اليهم وتنادوا الى طعامهم الذى هياوه ، ولم يكلفوا أنفسهم قبل ذلك مشقة استطلاع الطريق ليأمنوا البغتة قبل تهيئة الطعام !

أما الروم فكان لهم غرور كهذا الغرور فيمواجهة البادية العربية ، وكان قصارى ما حذروه فى أول الأمر أن يغير العرب على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفروا بسلبهم الى الصحراء ·· فان أوغلوا فى بلاد الدولة الرومانية فهم مأخوذون بالهبات والوعود أو مأخوذون بالكثرة المستعدة لا يقوم لها جند قليل يوشك أن يتجرد من السلاح بالقياس اليهم · فلما جد الجد وعرفت الدولة الرومانية من تقاتل من أولئك الجند العزل على زعمها اذا هى تنقلب من الغفلة الشديدة الى الفزع الشديد

▭

ويبدو لنا أن المؤرخين المحدثين لم يبرءوا كل البرء من هذا الخطأ القديم ·· فما يزال الأكثرون منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم ، ويحسبون هذه الغلبة شيئا قد حصل وكان ينبغى أن لا يحصل ، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها ومصادفة لا تقبل التكرار !

وبعضهم يلتمس العلة فيقول : « انما هى وهن الدولتين ومصابهما بالخور والانحلال»، أو يلتمس العلة فيقول: «انها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم الى مثل هذه العقيدة »

وكل أولئك تعليل ناقص من بعض نواحيه

فالمصادفة لا محل لها فى حوادث الوجود ، ولا تطرد فى قتال بعد قتال ، من جوف الصحراء الى عمران العراق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين أفريقية والصين

وانحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزها عن النصر ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أســباب النهوض والتمكين

والعقيدة قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقـــدها ، ولكنها هي وحدها لا تغني عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقــواد ٠ وقد كان المسلمون في عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادي حنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم ، وفي ذلك يقـــول القرآن الكريم : « ٠٠٠ ويومَ حنينٍ اذْ أعجبتكمْ كثرتكمْ فلم تغن شــيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين »

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص لهم من الرجوع اليها لفهم الغلبة الاسلامية أو فهم الهـــزيمة الفارسية والرومانية ، وهذه الحقيقة هي أن المسلمين كانوا أيضا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التي تنفعهم من قواد تينك الدولتين ، وان البادية العربية سواء في عصور الجاهلية أو صدر الاسلام لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التي توهمها معظم المؤرخين الأوربيين ، بل معظم المؤرخين عامة ولا نحاشي منهم العرب والمسلمين

فالصورة الشائعة في خيال أكثر القارئين عن البادية أن حروب الصحراء لم تكن الا مشاجرات بالســيوف والرماح أو بالقسي والمقاليع ، لا ترجع الى نظام ولا تنهج على خطـة ولا يخلص منها فن يتعلمه المتعلم ويتلقاه اللاحق عن السابق، وقوام أمرها شراذم من السطاة والمغيرين سرعان ما تقبــل

حتى تدبر ، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفر بعد الكر أو تكر بعد الفرار

وهذه صورة مضللة لمن يسترشد بها فى اختبـار قدرة البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة

فمن الخطأ « أولا » أن تســـتخف بالرياضة التى يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه المناوشات ، أو على ما نسميه اليوم حرب العصابات ، حتى لو صح أنها كانت هى كل ما يعرفه أهل الصحراء من فنون القتال

فالذى لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال على حروب العصابات التى تشترك فيها القبـائل أبدا بين عادية ومعدو عليها ، وأن البدوى قد عاش زمنا كمـا جاء فى التوراة « يده على كل انسان ويد كل انسان عليه » . فحصل من ذلك على ملكة مطبوعة يصح أن تسمى « حاسة الحرب » أو أهبة الميدان الخالد التى لا تفارقه فى ليـل ولا نهار . فلا يزال حياته فى حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذى يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار

وهذه ملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخرى ، ويتدربون عليه كأنه عمـــل يؤدى فى مكان العمل ثم يطرح عن العاتق فى سائر الأوقات

ومن الرياضة التى يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب حروب العصابات أنهم يتعودون الصبر على الفرار ويملكون الجأش عند الأدبار ، لأن الفرار عندهم حركة من الحركات المألوفة فى كل وقعة يخوضون غمارها ، وليست هزيمة تطيش باللب وتخلع الفؤاد وتوقع فى روع صاحبها أنه ضيع الأمل ولم يبق له من أطوار القتال غير التسليم. فهو فى حالة صالحة لاستئناف القتال ان أقبل وان أدبر ،

وسواء طمع فى النصر أو لاذ بالنجاة ، وكأنه يتأخر ليتقدم فى حينها أو بعد حين ، ويتحول الى الوراء كما يتحول الى الشمال أو اليمين ، طوعا لأمر مقصود وجريا فى عنان ممدود ، ومن هنا تيسر لقواد العرب فى الغزوات الكبيرة أن يلموا شمل الجيش المنهزم فى سويعات معدودات وأن يتداركوا الخذلان من حيث يعسر على الجيوش المنظمة أن تتداركه قبل زمن طويل

ولن تخلو العصابات المغيرة ـ مع طول المرانة ـ من علم بأصول الاستطلاع والمباغتة والتبييت والمخاتلة وحسبان الحساب للرجعة والافلات،وهى على بساطتها أصول لا ندحة عنها فى أكبر الميادين وأصغرها على السواء

هذا ان صح أن حرب العصابات هى كل ما حذقه عرب البادية من فنون القتال فى تاريخهم القديم

وذلك غير صحيح

فالعرب قد عرفوا فى حروبهم التى وقعت بينهم تسيير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الأسلحة والأقسام، وقيل أن جيش الغساسنة الذى حارب المنذر بن ماء السماء لم يكن يقل عن أربعين ألفا بين راجل وفارس ، وكان فى الجيش معا راكبو الخيل وراكبو الابل وحاملو السيوف وحاملو الرماح والضاربون بالسهام والنبال والضاربون بالحراب والحجارة

ولقد كان الغساسنة والمناذرة أصحاب ملك قائم لا يعسر عليهم تسيير هذه الألوف المؤلفة الى الميادين القريبة ، ولكن القبائل التى لم تكن على شىء من هذا الملك كانت تسوق الألوف للقاء أمثالها وتستعد لها بالجيوش التى تساوى فى عددها بعض جيوش القتال فى عصرنا الحديث ، فاستعدت مذحج لقتال تميم يوم الكلاب الثانى بثمانية آلاف ، وجرى بين الفريقين من حيل الاستطلاع والمراوغة والهجوم والمطاردة

ما هو محتو لكل عناصر الكفاح الأولى في كل زمان

على أن البادية لم يفتها قط علم الحرب كما علمتـه دول الحضارة في عصور الجاهلية العربية ، فكانت غسان عـلى مقربة من الروم تدخل معهم فى الفرق المتطـوعة على حالى الدفاع والهجوم ، وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس يخدمهم أحيانا كتيبتان من الجيش الفارسى هما الشـهباء والدوسر أو « الدوشير » بمعنى الأسدين شـعار الدولة الفارسية ، وكان جند الشهباء منأبناء فارس وجند الدوسر من أبناء القبائل العربية ، وليس يحتاج العربى الى أكثـر من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط الفنون التى يحتـاج اليها فى تعبئة الجيوش وللفطنة الى المخاوف التى يتقيها فى مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة

وقد تبين هذا فعلا فى وقعة ذى قار التى تغلب فيهـا العرب على الدولة الفارسية • فان العـرب كانوا فى تلك الوقعة أبرع قيادة وأخبر بفنون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية • فلم يغفلوا قط عن حيطة واجبة أو حيلة نافعة قبل اشتباكهم بالجيوش الفارسية : بعثوا الطـلائع وبثوا العيون وقسموا جموعهم الى ميمنة تولاها بنو عجل وميسرة تولاها بنو شيبان وقلب تولته بطون من بكر عليهم رئيسهم القدير هانىء بن مسعود ، وأنفذوا الى قبـائل العرب الذين فى جيش الفرس رسلا يثـيرون نخوتهم ويغرونهم بالتخلى عن أصحابهم حين يجـد الجد ويلتحم الجيشان • فوافقتهم أياد وبرت بوعدها فولت من الميـدان فى أحرج الأوقات

ولما أصبح يوم الوقعة الحاسمة أقبل الفـرس ومعهم الأفيال والفرق المدرعة فلم يرع قادة العرب ما شـاهدوا من ذلك الجيش الزاخر وتلك العدة الوافية ، بل تشاوروا فى أمرهم وعقدوا بينهم ما يشبه « مجلس الحـرب » فى

اصطلاح هذه الأيام • فقـــال ربيعة بن غزالة السكونى : « لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشـــــابها ، ولكن تكردسوا كراديس ، فان أقبلوا على كردوس شد الآخر» • وقال حنظلة بن ثعلبة : « ان النشاب الـــذى مع الأعاجم يفرقكم ، فاذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقـــــاء ، وابدأوهم بالشدة » • وقال يزيد بن حمار : « أكمنوا لهم كمينا » ففعلوا وأكمنوه فى موضع يقال له الخبىء وأوصوه أن يظهر حين يستحر القتال بين العسكريين وتفـر قبيلة أياد من صفوف الأعاجم ، فيكون فرار أنصارهم واقبـــال المدد الى خصومهم ، مع احتدام القتال ، ضربتين متداركتين لا يقوون بعدهما على الثبات

ولم يغفلوا عن حمية الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والأنفة من طلب النجاة ، وهو ما نسميه اليـــوم بالروح المعنوية ، فعمد حنظلة بن ثعلبة الى وضـين راحلة امرأته ـ أى حزامها ـ فقطعه ، وتتبع رواحل النساء فقطع وضنها جميعا فسقطت على الأرض، وصاح بقومه : «ليقاتل كل رِجل منكم عن حليلته ! » •• وراح السيافون يقطعون أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف،وتسابق الخطباء والشعراء فى التذمير والتحريض فذهبوا جميعـــا يرددون قول قائلهم « المنية ولا الدنية واستقبال الموت خير من استدباره »

وتبارز بعض الفرسان من العسكرين ثم التحم الفريقان وحمى الوطيس وظهر الكمين فى أوانه وولت أياد فتبعهـا فريق ممن كسرت قلوبهم هذه الصدمة التى فوجئوا بهـا على غير رقبة ، وأطبق الكمين على قلب الجيش ومعه كوكب الجيش العربى كلهفحقت الهزيمة العاجلة على أقوىالجيشين، وكتب النصر لأولى الفريقين به فى ميزان الفن العسكرى

الذى يشمل جميع المرجحات ، ما عدا المرجح المادى دون غيره ، وهو العدد والسلاح

اذ الحقيقة أن غلبة العرب فى يوم ذى قار انما كانتغلبة لليقظة على الغفلة، وللكفاية على العجز، وللخفة علىالفخامة، وللفن الحربى الصحيح على النظم التقليدية التى لا تصرف فيها ، وللعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة ، وكان العرب خلقاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصر فىالحروب القديمة والحروب الحديثة ، الا تفوق الفرس فى بعض العدد التى لم ينفعهم تفوقهم فيها عند التحام الصفوف

وليس فى وسع عالم من علماء الحرب فى زماننا هذا أن يأخذ عليهم خللا فى خطتهم لم يلتفتوا اليه أو يحصى عليهم وجها من وجوه التدبير قصروا فيه ، لأن وجوه التدبير كلها فضول بعد أن تستقيم للمقاتل :

(١) أهبة الاستطلاع • و (٢) رسم الخطة • و (٣) تنظيم الجيش فىمواقفه • و (٤) تنظيم الجيش فىحركاته • و(٥) اذكاء العزيمة فى نفوسه و (٦) اضعاف العزيمة فى نفوس خصومه ، وهذه كلها هى صفوة لبـــاب الحرب فى العصر الحاضر وفى العصور الغابرة ، وفى جميع العصور الى آخر الزمان

ويبدو لنا أن مزية الفرس والروم فى أنواع الأسلحة والعدد كانت مزية مبالغا فيها على الأقل فى ميـــــادين الاشتباك والالتحام ، اذا صح أن لها الرجحان فى مواقف الحصار ومواقف الحرب من بعيد • لأننا عرفنا من أخبـار الحروب الماضية أن بعض الفرسان البواسل كانوا يترجلون ليحكموا الضرب والحركة ، وكانوا يخلعـــون عنهم شكتهم تبرما بها وتخففا من ثقلها ولا سيما فى أيام القيظ أو فى المواضع الوعرة التى تصعب فيها حركة المدرعين فى الشكة السابغة ، وكان بعض الضباط من النبـــلاء يستصحبون

خدما لهم ليحملوا لهم شكتهم الى حين الحاجة اليها ، وجاء في كتاب فيجتيوس Vegetius انجيل الحرب عند الرومان الأقدمين أن الجنود كانوا يضيقون ذرعا بالدروع المعدنيـة ويستثقلونها ويودون لو يطرحونها ويتاح لهم العمل بغيرها، ولم تكن لهم حاجة بها الا حين يرادون على الاقتراب مع مواقع السهام والنبال والحراب الطويلة ، لأداء عمل من الأعمال

وعندنا أن العرب قد كسبوا الطريقتين معا بنشأتهم في البادية واقترابهم من دول الحضارة • ونعنى بهما طريقـة العصابات وطريقة الجيوش فى ادارة الحروب

▭

فهم قد برعوا في حرب العصابات بالمرانة الطويلة ، ثم اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم ، فلم يخسروا بذلك احدى الطريقتين بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيده كل منهما فى موضعها ، فأضافوا سرعة العمل في طريقة العصابات الى أحكام التنظيم في طريقة الجيوش ، وكانوا يقاتلون بفنين متسـاندين يأخذون منهما ما يأخذون ويدعون منهما ما يدعون ، حيث كان الفرس أو الروم يتقيدون بفن واحد على التراث المحفوظ الذى لا يحسنون التجديد فيه

ومن المحقق أن قبائل العـرب التى أقامت فى الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيب الأوفى من كلتا الطريقتين، اما بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود ، ولا سيما قبائل قريش التى كانت تقيم فى عاصمة العواصـم العربية من الوجهة الأدبية والثقافية ، وكانت تجمع كل ما تفرق بين أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات ، لأنها أخذت نفسها بآداب الرئاسة المدنية والبـدوية التى يدين بها جميع هؤلاء

فالتاريخ الصادق يتقاضانا أن نعرف هذه الحقيقةلنعرف موقع العدل والانصـاف من حكم الزمن بين الأمم الكبيرة التى تنازعت السيادة بعد ظهور النهضة العربية

فالنهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفى ، بل هى قد انتصرت لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التى لا مصـــادفة فيها ولا محاباة ، ولا محل فيها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار

وانما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت فى أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها

كانوا متفرقين بغير باعث الى الوحدة والنهوض، فجاءتهم الدعوة الاسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم فى سبيلهم . فتم لهم ما نقص وتهيأت لهم ذرائع النصر فى شرعة الأرض والسماء ، وعلم النبى عليه السلام بيـــوم « ذى قار » وهو يدعو العرب الى دين التوحيد ، فرأى فيـه بوادر نصر العرب على العجم ، وأيقن أنه يوم تتلوه أيام ، وأنه مسمع بدعوته الأمم جميعا عما قريب

قريش ومخزوم

كانت قريش موئل الثقافة العربية من أنحـــاء الجزيرة كلها بين حاضرة وبادية ، ومن قديم عصورها الى حديثها لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة ، وكانت تقيم فى عاصمة الحجاز والى جوار الكعبة التى يحج اليها العرب، تبركا بحرمتها ولياذا بأصنامها ، ويحملون الى أسواقهـــا أزواد الأدب والشعر والحكمة ، كما يحملون اليهـــا أزواد القوت وسلع التجارة

وكانت قريش تتنقل الى بلاد العرب كما يتنقل العـرب اليها من بلادهم ، فكان لها رحلتان فى الشتاء والصيف :

احداهما الى اليمن والأخرى الى الشام ، وكانت تضيف الى ما تعلمه بالسماع والرواية علم المشاهدة والمراس ، حيثما نزلت فيطريقها منديار العرب أو من ديارالروم والحبشة، وسائر الأمم الأعجمية كما كانت تسميها

والعرب من دأبهمحفظ السير وروايةَ الأحاديثوالتنقيب عن الأخبار والطوايا ، لأن الاستطلاع من طبيعـــة سكان الصحارى ، وتتوقف سلامتهم أحيانا على خبر يعلمونه فى أوانه كما تستهدف أرواحهم أحيانا للخطر العظيم من جراء طارىء داهم تفوتهم الحيطة له فى حينه ، ولم يزل أبنـــاء القبائل على ولعهمالمأثور بالسير والأخبارلغير هذه الضرورة التى يدعوهم اليها حب الأمن والسلامة • فهم غيـــورون على تراثالآباء والأجداد تفاخرا بالنسبالعريق وتصحيحا للعلاقات وتمييزا للأقربين والبعداء

ومع هذا الولع الأصيل فى الطبيعة العربية باستقصاء الخبر ، يصعب على الذهن أن يتخيل أن قريشا تجهل شأنا من شؤون الثقافة العربية ، وهى تقيم فى مثـابة الجزيرة كلها وتسهر على عاصمة العرب ، وتجوب أنحاء هذا الوطن الكبير من شماله الى جنوبه ومن جنوبه الى شماله ، وتتابع العصور حقبة بعد حقبة وهى فى مرقبها الذى تطل منـه على كل ما يعنيها

فقلما غاب عنها علم وصل اليه أبناء الحواضر والبوادى باجتهادهم واختبارهم ، أو وصلوا اليه بالقدوة والسماع عن الأمم الأجنبية

وقلما خفى عنها فن من فنون ثقافة العرب فى مصـالح السلم والحرب ، أو معارض السياسة والشؤون الاجتماعية

ونظن أنخطأ المؤرخين فىتقدير معارف العربالسياسية لا يقل عن خطأهم فى تقدير معارفهم الحربية ، وقد كانت

كما رأينا كفؤا لحضارة الدولة الفارسية وتجـارب قوادها وأساورتها

وكذلك كانت لهم فى السياسة والنظم الحكومية خبـرة لا يستخف بها من ينفذ الى بواطنها ، فهى لا تبلغ أن تكون فلسفة مشروحة ومذاهب مفصلة على مثال النظم العصرية، ولكنها كذلك لا تنزل الى الفوضى ولا الى الغريزة الهمجية التى لا مساك لها ولا تدبير فيها

وأوجز ما يقال عن خبرتهم بالنظم الحكومية أن العـــالم القديم لم يعرف قط نظاما من أنظمة الحكم الا كان للعرب نموذج منه يوافق مصالحهم وعقائدهم ويجرى على عاداتهم وخلائقهم

عرفوا نظام الامارة التى ينفرد فيها الأمير برأيه ويستأثر فيها بشريعته وقضائه

وعرفوا نظام الامارة التى يتولى فيها الحكم نائب عن الأمير يفصل فى قضايا الرعية بمعونة ذوى الرأى منها « الا أن يكون غزو أو قتال » فهو باسم الملك دون غيره، وهو النظام الذى جرى عليه أهل الحيرة زمنا مع ملكهم المنذر ونائبـــه زيد بن حماد من بنى أيوب

وعرفوا نظام الأمارة التى يختار أميرها من أمة أخـرى كما تنتقل الأسر الأوربية اليوم من مواطنهـــا الى الموطن الذى تحكمه بالمصاهرة أو بالاتفاق بين الدولتين · وعـــلى هذه السنة اجتمع البكريون حين غلبهم ســـفهاؤهم وأكل قويهم ضعيفهم فقال شيوخهم : « لا نستطيع دفع ذلك الا أن نملك علينا ملكا نعطيه الشاة والبعير ، فيأخذ للضعيف من القوى ويرد على المظلوم من الظالم ، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون ، ولكنا نأتى تبعا فيختار لنا » فقصدوه فملك عليهم حجرا أميرا كندة،وهو أبو امرىء القيس الشاعر المشهور

وعرفوا الحمايات على أنواعها : حمـــــاية الأمارة التى تستعين بجيش أجنبى ، وحماية الأمارة التى تعتمد عـــلى جيشها ، وحماية الأمارة التى تدين لدولة واحدة أو تدين لدولتين • كما حدث ذلك فى ملك اليمن بين الحبشةوفارس وسادات البلاد

وعرفوا رئاسة القبائل المنفردة ورئاسة القبائل المجتمعة الى نسب واحد ، ورئاسة الرحـــــل الذين يرعون الابل والشاء ، ورئاســة أهـــل المدر الذين يغـــرسون المروج والبساتين ويزاولون التجارة من موسم الى موسم

وكانت قريش تسمعبهذه النظم وتشاهدها فيمواضعها وتقتبس منها ما هى فى حاجة اليه ، ولكنها لم تأخذ بنظام الأمارة لأن التنافس بين بطونها يمنعها أن تتفق على ملك من احداها ، ولم تتعرض لنظام الحماية لأنها كانت بنجوة من سلطان الدول الأجنبية ، ولم يوافقها نظام أهل الوبر ولا نظام أهل المدر لأنها كانت وسطا بين الحضارةوالبداوة كما قدمنا ، وكانت ترعى مصالحها ومصـــالح الوفود التى تقبل اليها حاجة أو متجرة وليست هى من عشائرها التى تقبل منها حكم الشيخ فى قبيلته على أية صفة من صفاتها

فاختارت لها نظاما فريدا يوفق بين هـــذه الأطوار الاجتماعية المختلفة فيها ، ولعله أشبه النظم بنظام المشيخة بين الرومان الأقدمين ، وانما يؤول الرأى الأخير فيـــه الى مجلس يجتمع من رؤساء كل بطن فى القبيلة ، ويوشك أن يكون أمره شورى أو على صورة الشـــورى التى ترضى بالمجاملة وان لم يكن فيها رضى بالحقيقة . اذ الحقيقـــة ان المرجع الأخير الى أقوى الأقوياء من أولئك الزعماء ، كلمـــا حزب الأمر وتشعبت الآراء

ومن زكانة الحكم عنـــدهم أنهم فهموا منـــاط الرئاسة القرشية التى يدين بها حجاج البيت الحرام وقصاد مكة من

الحضر والبادية ، وهى الدين واللغة والتجارة المشتركة

فحفظوا مناسك الكعبة ، وجعلوا أســـــواقهم معرضا للبلاغة الشعرية والخطب المروية ، وتعاهدوا على ضـــمان الثقة بالتجارة كلما غدر غادر بذمتها ، أو اعتدى معتد على حقوقها

واحتالوا على التوفيق بينهم بتقسيم المفـــاخر والمراسم على بطونهم وزعمائهم حســب أقدارهم ومزاياهم ، فانتهى الشرف الى عشرة بطون هم : هاشم وأميـــة ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وســـهم ، فكانت لهاشم سقاية الحاج ، وكانت لأمية راية الحرب يخرجهـــا عند القتال ليسلموها الى قائدهم المختار ، وكانت لنـوفل الرفادة وهى اعانة الحجاج المنقطعين بالمال ، وكانت لعبـد الدار السدانة والحجابة واللواء ، وكانت لبنى أسد المشورة أو رئاسة مجلس الشورى فى مهمات الأمور ، وكانتلبنى تيم الديات والمغارم ، وكانت لبنى مخزوم القبة وهىمجتمع الجيش والأعنة وهى قيادة الفرسان ، وكانت لبنى عدى السفارة ، ولبنى جمح الأيسار أو الأزلام ، ولبنى ســهم الحكومة والأموال المحجرة، وظلوا يتداولونها جيلا بعد جيل الى ظهور الاسلام

ولم يكن لهذه « الوظائف » الموزعة شأن واحد فى جميع الأوقات والأحوال ، بل كانت تعلو وتهبط على حســـب الزعيم الذى يتولاها وعلى حسب القوة التى يكون عليهـا بيته عند ولايته اياها • ولكننا اذا نظرنا اليها نظرة مجملة وجدنا منها ما كان يقصد به « جبر الخاطر » والارضاء وما كان يشبه الوظائف الشورية أو الادارية الثـــانوية فى حكوماتنا الحاضرة ، ولم نجد بينها « سلطات » فعالة خليقة أن تتعاقب مع الزمن غير ثلاث متفـــرقات ، وهى السلطة

الروحية لهاشم وعبد الدار ، والسلطة السياسية لأمية ، والسلطة العسكرية لمخزوم

من بنى مخزوم هؤلاء نشأ خالد بن الوليد ـ بطل هذا الكتاب ـ وكانت نشأته فى أعرق بيوتها وأعلاها وأشرفها وأغناها ، فلم يكن من أبوته أو عمومته الا رئيس ابن رئيس لا تعلو مكانته مكانة أحد من رؤساء الجاهلية

كان جده المغيرة بن عبد الله ، الذى كان الرجل من بنى مخزوم يؤثر أن ينسب اليه فيسمى المغيرى تشرفا بالانتساب الى الفرع الذى أناف على الأصول

وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد ، لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى

وكان عمه هشام قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار ، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام ، ولم تقم سوقا بمكة ثلاثا لحزنها عليه

وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب فى زمانه ، له بيت للضيافة يأوى اليه من شاء بغير استئذان

وكان عمه أبو حذيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود الى موضعه من الكعبة كما أشار النبى عليه السلام قبل الدعوة الاسلامية

أما الذى فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء فى بعض الروايات • فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم الى اول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر الى مكانه ، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل اهلالها على العالم بسنين • ولقب

أبو امية زاد الراكب لأنه كان يكفى أصحابه فى السفر مؤونتهم فلا يتزودون بزاد

ويظهر أن بنى مخزوم هؤلاء كانوا فى ثروتهم وعدتهم وبأسهم أقوى البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منها عن سائر بطونها • ولكنهم لم يستأثروا بالزعامة القرشية لأنهم كانوا ينافسون بنى هاشم وبنى أمية وبنى عبدالدار، وهم ثلاثة بطون قوية يلتقون فى جد واحد أقرب من الجد الذى يجمعهم ببنى مخزوم ، وهو مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر جد قريش أجمعين

وقد تبينت رجاحتهم هذه فى مواقف كثيرة قبل الاسلام وبعده • فاضطلعوا وحدهم ببناء ربع الكعبة بين الركنين الأسود واليمانى ، واشتركت قريش كلها فى بناء بقية الأركان

وكان لبنى مخزوم وحدهم فى وقعة بدر ثلاثون فرسا من مائة فرس لقريش كلها ، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف مثقال من الذهب غير الأزواد والأمداد

فلا جرم يعظم على نفوسهم أن يغلبهم منافس على الشرف والعزة ، وأن يحوزوا كل ما حازوه من الرجال والأموال ثم تشيل كفتهم مرجوحة فى ميزان الفخار

ولا جرم يأخذون الأمر مأخذ الأنفة والحنزوانة بينهم وبين بنى عبد مناف حين تظهر النبوة فى هؤلاء ولا تظهر فيهم

وقد أخذوها هذا المأخذ حين قال أبو جهل : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحازينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء •• فمتى ندرك هذه ؟ »

وانما قال أبو جهل « بنو عبد مناف » ذهابا الى الجـــد الذى يجمع هاشما وأمية وعبد الدار ، كأنه يســـتعلى فى كبريائه أن ينافس هاشما وحدها دون أن يصعد الى أبيها الذى يجمع بينها وبين غيرها

وكان الوليد بن المغيرة يزعم أنه هو أحق الناس بالنبوة والقرآن ، ويقول : « أينزل على محمـــد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟ » .. ففى ذلك يقول القــرآن الكريم : « وقالوا لولا نزلَ هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم»

ونحن نعلم الآن أى عقبة كانت هذه الخنزوانة المخزومية فى طريق الاســـــلام اذ نرجع الى الآيات التى نزلت فى رؤسائهم ووصفت ما كان من عنادهم وعتادهم ، وما كانوا يقابلون دعوة الدين الجديد بدعواهم فى آبائهم وأجدادهم، فلم ينزل فى رؤساء قبيلة مثل ما نزل فى رؤساء هـــذه القبيلة ، ولم تتمثل منعة قوم كما تمثلت منعتهم فى ردود القرآن على أقوالهم ، وهى أقوى ردود عرفت فى الســور المكية الأولى ، على ما جاء فى الآيام الكثيرة من ســورة ن وسورة المدثر وسورة الكافرون ، عدا اشارات أخرى فى سورة الحجر وعبس وتولى

وكل أولئك فحواه شيء واحد ، وهو أن بنى مخـــزوم باءوا بأسباب المحافظة على القديم جميعا حين تصدى الاسلام لتبديل ذلك القديم ، فهم أول من يصاب بهـــذه الدعوة الجديدة وآخر من يليها وله مندوحة عنها ، ومن ثم كانت المصاولة بين الاسلام والجاهلية فى وجه من وجوهها مصاولة بين محمد عليه السلام وبين خالد بن الوليـــد الذى انتهى اليه شرف الرئاسة المخزومية فى ذلك الأوان

والناس يختلفون فى تمثيل بيئاتهم وطبقاتهـــم غاية الاختلاف ويصدقون فى تمثيلها غاية الصدق وهم يتفاوتون

بينهم تفاوت النقيض والنقيض . لأن البيئة مستودع شامل يوجد فيه الحسن والردىء ويأخذ كل منه على حسب مأتاه ومورده ، وحسب ما هو مستعد له وقادر عليه

فاذا قيل سيد من سادات قريش أو نموذج من نماذج القرشية الجاهلية جاز لنا أن نتمثله على ألوان كثيرة لا على لون واحد ، وجاز أن يكون هذا السيد خير السادات من طبقته أو شرهم وشر أهل زمانه من جميع الطبقات

ولكننا مع هذا قد نحصر الخصال المشتركة والنعوت الوسطى التى تشيع فى هؤلاء السادات غير من تجاوزوا الحد وبلغوا الندرة فى الشذوذ والاستثناء

فالغالب على هؤلاء السادة أنهم يتوارثون الثقافة العربية ويتدارسونها بالتعليم والتلقين والمعاشرة ، ويستوعبون أخبار الحكماء وذوى الأحلام فى علاج المشكلات وتدبير الحيل ومصانعة الناس والأيام

ويكثر فيهم أن يجمعوا الثقافة السياسية والعسكرية كما وصلت اليهم من تراث الأقدمين من عرب وعجم ، وبخاصة من كان منهم منوطا بعدة الحرب وقيادة القبيلة فى غزواتها أو مواقف دفاعها ، كما كان خالد بن الوليد

ومن صفاتهم الشائعة فيهم حب السيطرة والصرامة وقلة الرحمة والاستزادة من المال ومتع الحياة والتفاخر بالوفر والثراء وجمع الحطام من حيثما اجتمع بأساليبهم التى كانوا يستجيزونها ولا يتحرجون منها ، وأشيعها الربا والمغالاة بالأسعار

وقد وجد فى أسرة خالد من يكثر من الاقراض بالربا ومن يرى فى أموال الربا شيئا من الدنس يقاربه فى أحوال ويستبعده فى أحوال أخرى

فمات أبوه وله على قبائل مكة وأرباضها ديون تحسب

بالألوف لم يزل خالديتقاضاها حتى أسلم وأسلم المدينون، فترك الربا من بعدها واكتفى برأس المال عملا بالقـــرآن الكريم : « يأيها الذين آمنوا اتقـــوا الله وذروا ما بقىَ من الربا انْ كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله ، وان تبتمْ فلكم رءوسُ أموالكم لا تظلمونَ ولا تظلمون »

وكذلك وجد فى أسرته من نزه الكعبة عن أمـوال الربا وما شابهها • فقال لقومه : « يا معشر قريش ! لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيباً لا يدخل فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد »

وكلهم قرشى جاهلى من طبقة السادة وأصحاب المال

فحين نقول ان خالدا كان مثال طبقته وعنوان المحافظة على مزايا هذه الطبقة يحسن بنا أن نتجه الى تلك الخلائق الوسطى ونترقب منه نماذجها المشتركة التى لا غلو فيهـا من هنا أو هناك ، حتى نرى دلائل الزيادة فى خليقة من تلك الخلائق ، فذاك اذن خاصته التى يتميز بها بين قرنائه ولا تخرجه من معهود الطبقة كلها على الاجمال

ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضـــيف الى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها فى كل مجتمـــع انسانى وليس شأنها بالقليل فى حياة خالد على التخصيص

فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الأقطاب بين رجالهـــا مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لهـا هذه الشهرة الى ما بعد قيام الدولة العباسية ، اذ كان يقال لأبى العباس السفاح: ان المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين

ولا بدع يكون هذا شأن القبيلة التى نبغ منها خالد بن الوليد وعمر بن أبى ربيعة • فقديما كانت الفـــروسية

والغزل والمرأة بيئة واحدة تتعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال

وصفوة هذا جميعه أن خالد بن الوليد قد دخل الاسلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية فى عهد الجاهلية، فصنع للاسلام وصنع الاسلام له الأعاجيب ، وكان مقياس العبقرية العربية فى عهدين متقابلين

نشأة خالد وإسلامه

نشأة خالد

خالد بن الوليد بن المغيرة أحد سبعة أخوة من الذكور وقيل عشرة ، بل ثلاثة عشر بين ذكور وأناث ، ومنهم أختان

وقد تقدم اجمال القول فى شرف قومه ونصيب أعمامه خاصة من الرئاسة والزعامة . أما أبوه الوليد فقد كان الرأس بين الرءوس والزعيم بين الزعماء ، وكانت له فى بعض نواحى خلقه وعقله لمحات تلك المواهب التى تجلت بعد ذلك فى عبقرية ولده العظيم

كان أغنى أبناء زمانه فى صنوف الثراء المعروفة بينهم كافة : الذهب والفضة والبساتين والكروم والتجارة والعروض ، والخدم والجوارى والعبيد ، وسمى من أجل ذلك بالوحيد ، ولقب من أجل ذلك بريحانة قريش

وهو الذى قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر : « ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا »

ويروى سفيان الثورى أنه كان يملك ألف ألف دينار ، ويروى ابن عباس أنه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال

ولكبريائه فى جوده أو جوده فى كبريائه كان ينهى أن توقد نار غير ناره فى منى لاطعام الحجيج

وكان يأنف لنفسه فى الجاهلية أن يرى سكران على اباحة الخمر وشيوعها فى تلك الايام ، فانتهى عنها بغير ناه ، وقيل انه قطع يد السارق على سبيل القصاص

وقد كان من أصحاب الحيلة والحول والاقدام : ضربة من ضرباته فى موقف اللبس والتردد ترينا فيه أبا خالد قبل أن يعرف العـــالم ضربات خالد ، وذاك يوم تداعت الكعبة وأوجس المشركون أن يهدموها ليعيدوا بناءها ، توقيرا لتلك الحرمة التى كانوا يقاربونها بالضراعة والخشوع ويدخلهـا بعضهم حفاة الاقدام ولم يقربوها قط بهدم أو عدوان · فلما رأى وسواسهم وفزعهم تناول المعول وضرب الضربة الاولى بيديه وهو يقول : « اللهم لم ترع · اللهم لا نريد الا الخير » ومضى فى أثره الهادمون غير متهيبين

ويؤخذ من بعض أحاديثه مع أبى جهل أنه كان من أفقه الناس لمعانى الكلام ومن أحفظهم للشعر والخطب فى أيامه

« قام النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد يصلى والوليد ابن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبى صلى الله عليه وسلم لاستماعه أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم · فقال : والله لقـد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كـلام الانس ولا من كلام الجن · والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو وما يعلى ··· ثم انصرف الى منزله »

فقالت قريش : صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم · فأوفدوا اليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الاسلام ان كان قد نوى الدخول فيه ، وما زال به حتى قام معه الى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه يخنق قط ؟ تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ تزعمون أنه شاعر وما فيكم أحد أعلم بالشعر منى فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

يسألهم ويجيبونه : كلا ، فى كل سؤال

حتى اعياهم ان يردوا كلامه فسألوه رأيه فى تفسير بلاغة القرآن ففكر ثم قال : « ما هو الا سحر يؤثر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو السحر المبين ... فذاك اذ يقول القرآن الكريم : « انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر »

واختلف المفسرون فى تفسير المعنى المقصود بالعتل الزنيم الذى قيل انه نزل فيه

فرأى بعضهم أن الزنيم هو الدعى وأن الوليد بن المغيرة يوصف به لأن أباه ادعاه بعد ثمانى عشرة من مولده

ورأى بعضهم أن الزنيم وصف له من زنمة كان يعرف بها فى عنقه، وهى اللحمة المدلاة . ويخالفهم آخرون فيقولون ان الرجل الذى كان يعرف بهذه الزنمة هو الأخنس بن شريق ، وكان أصله من ثقيف وعداده فى زهرة

وفى رواية أنه عليه السلام سئل عن العتل الزنيم فقال انه هو الفاحش اللئيم ، وغير ذلك من الروايات والتأويلات كثير

الا أن الذى يعنينا فيما نحن بصدده أن الوليد لم ينسب قط الى أحد غير أبيه المغيرة ، وأن المغيرة لم يكن بحاجة الى استلحاق ولد غريب عنه لكثرة أولاده ونجابتهم بين فتيان مخزوم وقريش عامة ، وأن شبه الوليد ببنى المغيرة ظاهر حتى فى بعض الفروع البعيدة . فان عمر بن الخطاب كانت أمه قريبة خالد بن الوليد وكان يشبهه أقرب الشبه كما يتفق فى أيامنا هذه كثيرا بين أبناء العمات والاخوال ، وأن غير الوليد لأولى بذلك الوصف لما تقدم من اعتزاز قريش بنسبته فيهم حتى لقب بريحانة قريش وسمى بينهم بالوحيد

وعلى أية حال قد نشأ خالد فى بيت الوليد بن المغيرة وهو

سيد بنى مخزوم ، وأحد السـادات المعدودين فى قريش ، وصاحب الكلمة التى يتعلق بها مصير قومه فيما يجنح اليه من شرعة أو دين

أما أمه فهى لبابة بنت الحارث الهلالية،وهى أختميمونة أم المؤمنين زوجالنبى عليه السلام ، وأخت لبابة بنتالحارث الكبرى زوج العباس عمه ، وأخت أسماء بنت عميس التى تزوجها جعفر بن أبى طالب ثم أبو بكر الصديق ، ثم على ابن أبى طالب ، ولها أخواتأخريات بنى بهن رجال منذوى الأخطار ومقادير العشائر النابهين

وندر فى بيوت العرب النبيلة بيت لم يكن له صلةبخالد وذويه بالنسب والمصاهرة ، من جانب أمه أو جانب أبيه

والأقوال فى سن خالد وتاريخ مولده لا تنتهى الى قول يمتنع فيه الخلاف • فمن المؤرخين من يقول انه مات وله من العمر ستون سـنة • فاذا كان قد مات فى السنة الحادية والعشرين للهجرة فقد ولد اذن فى السنة الثامنة والثلاثين أو السنة التاسعة والثلاثين قبل الهجرة

ولكنه قول يحول دون تصديقه والأخذ به أن خالداكان صغير السن فى عام الفتح ـ فتح مكة ـ كما يفهم من تلقيب أبى سفيان له بالغلام وشيوع هذا اللقب بين عارفيه

فقد كان أبو سفيان وابن عباس يرقبـان عبور الكتائب والقبـائل فى يوم الفتح فكان خالد بن الوليد أول من مر فى بنى سليم • فسأل أبو سـفيان : من هذا ؟ قال ابن عباس : هذا خالد بن الوليد • فعاد أبو سفيان يسأل وهو يخفى حنقه : الغلام ؟ قال ابن عباس : نعم ! كأنه لقبكان معروفا بين شيوخ قريش

والرجـل لا يقال له « غلام » وهو فى نحو السـادسة والاربعين • وقد يقال له ذلك وهو حـول الاربعين اذا كان

القائلون من رؤساء الشيوخ وكان اللقب قد عرف قبل ذلك بسنوات وبقى بحكم العادة والتردد على الأفواه • فاذا كان خالد بن الوليد يومئذ فى نحو السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين فمولده على التقريب بين سنتى ثمانى وعشرين وثلاثين قبل الهجرة

وعندئذ تخطر لنا قصة أخرى لها صلة بهذا التقدير • وهى قصة المصارعة بينه وبين عمر بن الخطاب وهما غلامان وغلبته عمر وكسره ساقه فى هذه المصارعة•وانما يتصارع الندان أو المتقاربان • وعمر على تقدير مشهور قد ولد قبل الهجرة بأربعين سنة أو قرابة هذا التاريخ

فالتوفيق بين هذه الاقوال جميعا انما يستقيم لنا بتأخير مولد عمر قليلا عن سنة أربعين ، وتقديم مولد خالد قليلا عن سنة ثلاثين ، فيرجح اذن أن يكون مولده فى نحو سنة أربع وثلاثين قبل الهجرة • ولا مانع اذن أن يصارع عمر ويغلبه كما يغلب الفتى فى الرابعة عشرة مثلا زميلا له فى السادسة أو السابعة عشرة ، اذا كان مولودا للدربة على الرياضة وألعاب الفروسية ، وكان خالد ولا شك كذاك ، لانه ورث قيادة الأعنة من باكر صباه

نعم يظهر انه كانت عليه مخايل الفروسية منذ صباه الباكر ، اذ رشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبر أبنائه ، ورأيناه على قيادة الفرسان ـ فرسان قريش ـ فى وقعة أحد التى أحاط فيها برماة المسلمين من ورائهم • فحلت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره

وقد أسلفنا أن بنى مخزوم كان لهم فى الجاهلية أمر القبة والأعنة ، فالقبة هى خيمة عظيمة يضربونها ليجمعوا فيها عدة القتال • والأعنة هى الخيل وفرسانها ، وولاية خالد هذه « الوظيفة » الموكولة الى قبيلته بين بطون قريش جميعا هى آية استعداده للرئاسة والقيادة منذ صباه

وفى أخبار خالد قصة واحدة تنفعنا فى تصـور ملامحه وسماته لقلة أوصافه المحفوظة ، على خلاف ما تعودناه من أحاديث العرب عن أبطالهم ، وهى فى الغـالب مفيضة فى وصف أولئك الابطال

تلك القصة هى ما أشرنا اليه من المشابهة بينه وبينعمر ابن الخطاب ، حتى كان أناس من ضـعاف النظر يخلطون بينهما من قريب،ولا يميزونهما بالرؤية ولا بسماع الصوت الخفيض

وخلاصتها أن علقمة بن علاثة لقى عمر بن الخطاب سحرا فقال له : مرحبا بك يا أبا سليمان !. ثم دنا منه فلم يميزه مع دنوه وسماع صوته برد السـلام عليه ، فقال : عزلك ابن الخطاب ؟ فأجابه عمـر : نعم . فمضى علقمة يقول : ما يشبع ، لا أشبع الله بطنه !

وأصبح عمر فدعا بخالد وعلقمة وسأل خالدا : ماذا قال لك علقمة ! فنفى أن يكون قد لقيه أو جرى بينهما كلام . وكرر عمر السؤال ، فأقسم خالد بالله ما رآه ولا سمع منه شيئا...فقال علقمةكالموسع له منحرج : حلا أبا سليمان! ولم يفطن لغلطه حتى تبسم عمر وأخبرهما بالحديث

ومن هنـا تفهم أن خالدا كان طويلا بائن الطول ، وأنه كان عظيم الجسم والهامة ، مهيب الطلعة يميل الى البياض

وغنى عن تواريخ المؤرخين ولا جدال أن خالدا قد تعلم فى صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروسـية وشمائل الرئاسة ، ومن الصغائر العارضة التى زعم أناس أنها أصل الجفاء بينه وبين قريبه عمر بن الخطاب أنه صارعه كما تقدم فغلبه وكسر ساقه ، وهى صغيرة تنبىء عن دراية باكرة بفنـون الصراع والكفاح ، ولكنها لو لم تذكر فى مصادرها لأغنانا عنها علم القائد الكبير بفنون الفروسـية على أنواعها وسرعته فى مآزق النزال الى مصـارعة أقرانه

ومبارزيه واحتضانهم بعنف شديد حتى يعجزهم عن الحراك

وغير بعيد أنه تعود عيشة الشظف وراض نفسه على الخشونة عمدا فى البادية،ليصبر على مضانك الحرب وشدائد الجوع والظمأ حيثما تفرد عن موارد الزاد • فقد جاء فى بعض الاحاديث أن خالدا كان يأكل الضب ويشتهيه كما يأكله الاعراب ويشتهونه ، وهو أغنى انسان فى مكة أن يسيغ هذه الأكلة الاعرابية ، مع يساره وافتنان أهله فى الاطعمة الحضرية

قال ابن عباس رواية عن خالد أنه دخل مع رسول الله على خالته ميمونة بنت الحارث فقدمت الى رسول الله لحم ضب جاءها مع قريبة لها من نجد ، وكان رسول الله لا يأكل شيئا حتى يعلم ما هو ، فاتفق النسوة ألا يخبرنه حتى يرين كيف يتذوقه ويعرفه ان ذاقه • فلما سأل عنه وعلم به تركه وعافه • فسأله خالد : أحرام هو ؟ قال : لا • ولكنه طعام ليس فى قومى فأجدنى أعافه ••• قال خالد : فاجتررته الى • فأكلته ورسول الله ينظر !

ومثل هذه التربية لقائد من قواد الحرب نموذج يحتذى فى كل مدرسة من مدارس الفنون العسكرية الحديثة ، وعلى سنتها كتب نابليون تقريره وهو طالب فى المدرسة الحربية يعيب على النظام يومئذ أنه يسمح لأبناء الأعيان بمعيشة الترف واستصحاب الخدم بين جدران المدرسة ، وهم أحرى بخدمة أنفسهم فى مدرسة يتعلمون فيها الصبر على شدائد الحروب

وكان لخالد ولا ريب علم بالبادية العربية من غير هذا الطريق طريق الرياضة المقصودة ان صح ما رجحناه • فلعله سافر كثيرا فى الجزيرة قبل الاسلام ، ولعله عرف فى تلك الأسفار دروبها العصية التى كان يطرقها من العراق الى الحجاز ومن الحجاز الى اليمن ، ومن نجد الى الشام ، وبعضها

كان يعتسفه على عجل بغير أدلاء

ولم تكن بخالد ولا باخوته حاجة الى التجـــارة لكسب العيش وتحصيل المال ، اذ كان أبوه عـلى تلك الثروة التى لا مزيد عليها فى البلاد العربية ، وكانت ثروته أشبه شىء فى عصرنا هذا بثروة المصـــارف التى تعمل فى صفقات القروض والربا ومضاربات الاسعار • أما الثمرات والخضر فى مزارعه فلم تكن مما يحمل الى البـلاد القصية للبيـــع والشراء ، وانما قصاراها أن تباع فى الحواضر الحجازية وما قاربها من البـــوادى القادرة على شىء من الترف والمتعة ، ولاسيما فى أيام الاسواق والحجيج • ولهـذا فسر بعضهم وصف بنيه « بالشهود » فيما تقدم من الآيات بأنهم كانوا أبدا فى صحبته وجواره مفاخرة بهم وتنزيها لهم عن الكدح والتصرف فى شؤون المعاش • فان قضيت لأحدهم رحلة أو سياحة ففى غير هذه الاغراض أو فى غير حاجة ملحة الى الاتجار ، وانما هى الدربة والتمرس بالمصـاعب والانتفاع بخبرة الســـياحة وآدابهـــا ، وقد ينفقون فى ذلك خير ما يكسبون ، كما كان يصنع عمه « زاد الراكب » واعمامه الآخرون الذين اشتهروا بالأنفة من مجاراة أحـد لهم فى الضيافة وبذل العطايا والهبات

وموضع الترجيح والاستنتاج هنا انما هو فى ارسـال خالد الى البادية قصدا لرياضة النفس والجسد على خشونة الأعراب وشدائد الميادين•فهذا ، وان جرت به عادة بعض الأشراف فى حواضر الحجاز ، لم يقطع به قول من الأقوال فى سيرة الوليد بن المغيرة وبنيه « الشهود » عـلى احتمال الشهادة للمعنى الذى قدمناه

ولكن الأمر الموثوق به كل الثقة ، والذى لا موضع فيه لترجيح ولا اســـتنتاج ـ أن خالدا قد نشأ حيث نشأ فى الحاضرة أو البـادية مستعدا للخشونة مستطيعا لمعيشـــة

الاعراب ، مستجيب السليقة والبيئة لما يتكلفه المجاهد فى أوعر القفار وأعنف الحروب ، وكانت له ضـلاعة العصبيين الاقوياء المعهودين بين رجال السيف ، وهى ضلاعة يوشك أن تستمد من حماسة النفس وشـــهامة القلب أضعاف ما تستمده من العضلات والأوصال

فلم تعفه العبقرية من ضريبتها التى لا مناص من أدائها ، وآية ذلك أنه مات على فراشه فى نحو الخامسة والخمسين ، وليست هى بالسن الغالبـة فيمن يموتون بداء الشيخوخة من غير علة أخرى

واذا تجاوزنا هذه المظنة ، وهى كافية ، ألفينا فى تراجم الأسرة كلها ما ينبىء عن عوارض الأسرالتى تهيئها الأقدار لانجاب العباقرة فى شتى المواهب والمزايا

فهذه الأسر الغريبة تكثر فيها عوارض الاختلاف عن جملة الناس فى تركيب الأعصاب خاصة ، ويشاهد فيها فرد أو أفراد تتجمع فيهم عللهـا وتمعن بهم مخالفاتها وعنـــاصر شذوذها حتى تسلمهم الى الاختـلال والاضطراب ، كأنهم ضحايا الأسرة كلها فى سبيل انجاب العبقرية منها

وكانت هذه العوارض مشاهدة فى أسرة خالد وفى اخوته على التخصيص . فذكر كتاب الاستيعاب فى أسماء الاصحاب « أن الوليد بن الوليد كان يروع فى منامه مثل حديث مالك سواء فى قصة خالد » . وعن مسند ابن أبى شيبة أن خالد ابن الوليد كان يفزع فى نومه فشكا ذلك الى النبى عليـه السلام فقال له : « ان عفريتا من الجن يكيدك »

وبذلت هذه الأسرة الممتازة ضحيتها الكبرى فى شخص سليلها عمارة بن الوليد أحد الاخـوة المذكورين بأسمائهم من ذرية الوليد بن المغيرة

وعمارة هذا هو صاحب عمرو بن العاص فى رحلة الحبشة

رسولين الى النجاشي لتسليم المسلمين بها الى قريش

وكان مولعا بالخمر والغزل وسيما محببا الى النســـاء ، فلما كان بالسفينة مع عمرو وامرأته شرب وانتشى ونظر الى امرأة عمرو نظرة اشتهاء ، ثم هم بتقبيلها بل اومأ اليها أن تقبله في قول صريح • فقال لها عمرو متقيا ما يكون من فتى سـكران عارم الأهواء بين الماء والسماء : قبلي ابن عمك ! فقبلته • فلم يزد ذلك عمارة الا اغراء بالمراودة وجرأة على القحة ، ولمح عمرا على حافة السفينة وهو في ســكرة من سكراته فدفع به الى الماء يظنه غير قادر عـلى السباحة كما يغلب على أبناء البادية ، وأدهى من ذلك أنه قال لعمرو وقد رآه يسبح الى السفينة وينجو من الغرق : أما والله لو علمت يا عمرو أنك تحسن السباحة ما فعلت ! فاذا هو قد جمع سوء النية بحياته الى سوء النيــة بعرضه !! وكظمها عمرو حتى تمكن من الكيد له عنـــد النجاشي لاجترائه على حرمه ومعاشرته بعض زوجاته،فأرسله النجاشي في العراء مخبولا يعيش عيش الأوابد ، حتى مات

والقصاصون الذين سردوا لنا أنباء هذه المأساة يتهمون سواحر النجاشي بالكيد الذي أصاب عمارة بالخبال والهيام بين أوابد الآجام • ولكننا نحسب أن سواحر النجاشي براء من هذه التهمة الخرافية،لأن عملهن فيها غير لازم وغير مفهوم آذ كانت عوارض الخبال ظاهرة من كل حركة وكل كلمة وكل نزوة سردها لنا أولئك القصاص ودلوا على سوابقها ونظائرها قبل رحلة الحبشة وقبــل وقيعة عمرو بن العاص • وأكبر الظن فيما نراه اليوم على ضوء المشاهدات الحديثة أن المسكين قد اشـــتدت به عوارض الأسرة بأسرها فكان ضحيتهـــا المضروبة عليها ، في سبيل الشرف الذي غنمتــه بعبقرية خالد ، وهو شرف عظيم

وقد نلمح عوارض الأسرة هـذه فى اعظم افراد الأسرة كما نلمحها فى هـذا المسكين الذى ابتلى بالثمن الفادح والضحية الكبرى • فخالد بن الوليد ـ شرف بنى المغيرة ـ لم يفتنه الميـل الى المرأة كما فتن أخاه ، ولم يصرفه قط عن عبء من أعباء البطولة ولا عن فريضـة من فرائض العظمة والعبقرية ، ولكنه على هذا قد تعرض للمؤاخذة من عمر بن الخطاب ومن ابى بكر الصديق فى صدد الزواج المعجـل فى غير حينه ، فسبى امرأة مالك بن نويرة ، وتزوج خلال حرب اليمامة وهو بميدان القتال ، وسبى ابنـة الجودى فى دومة الجندل ، وقيل انه فقد اربعين ولدا فى طاعون الشـام وهو بقيد الحياة لما يجاوز الخمسين بكثير

وتلك فى جملتها شواهد العوارض التى يقرر النفسانيون المحدثون أنها سـمات العبقرية فى منابتها ، ومنابتها هى الأسر التى تنجبها وتبذل أثمانها قبـل أن تنعم بمجدها وفخارها

وكما ظهرت هذه العوارض فى لون من ألوانها على أخيه عمارة ظهرت فى بعض ألوانها الاخرى على أخيه الوليد الذى كان مثله يراع فى رقاده

فهذا الأخ الكريم كان مع جيش المشركين فى وقعة بدر فاسره المسلمون ، وطال الكلام فى فدائه لغناه وعداوة أهله للاسلام ، فطلب آسره أربعة آلاف درهم ، واوصى النبى ألا يقبلوا فدية له غير شكة أبيه الوليد وهى درع فضفاضـة وسيف وبيضة • وكل هذه المطاولة والمساومة والوليد باق على دين الشرك فى أسر المسلمين • فلما تم فداؤه وذهب الى اهله أعلن اسـلامه بينهم وهم كارهون ، وعجب المشركون لأمره فسالوه : هلا أسلمت قبل أن تفتدى ؟ فقال : كرهت أن يظن بى أننى جزعت من الاسار ... وصبر على التعذيب

والنكاية والحبس بين أهله حتى أفلت بعد جهد وحيلة ولحق بالنبى مشيا على قدميه !

هذه أيضا نفحة خالدية من نفحات تلك الأسرة القوية التى تأبى لخلائقها الا أن تحير الناس وأن ترد عليهم من مورد التفاوت والاغراب والمخالفة للمألوف

وهى فى أطوارها المتباينة منجم العبقرية الذى لا مراء فيه ، ومعدن البطولة التى تكتب لصاحبها وهو فى الاصلاب

فها هنا نشأة بطل عبقرى مدخر للقيادة والرئاسة بميراث حسبه وطبعه ، وملكات نفسه وجسده ، جاءته البطولة وهو ينتظرها ولا يشك فيها ، وتهيأ لها بالقدرة على الشدة والرخاء والنعمة والبأساء ، ويكاد الصدق والاشاعة معا يتوافيان الى دلالة واحدة فى تربية هذا البطل المنذور للبطولة والعبقرية من قبل ميلاده ، فأكلة الضب التى سبق ذكرها واحدة !. وغيرها آكلات مسمومات يبدو لنا أنها مخترعة أو محرفة ولكن اختراعها وتحريفها يدلان لا محالة على شىء : وهو اشتهار خالد بترويض بنيته على تجرع الغصص التى يتقزز منها الناس ويخافون منها الهلاك . ففى اليواقيت للقطب الشعرانى أنه حاصر قوما من الكفار فى حصن لهم فقالوا : تزعم أن دين الاسلام حق ؟ فأرنا آية لنسلم . فقال احملوا الى السم القاتل ، فأتوه به فأخذه وقال : بسم الله ، وشربه فلم يضره ، وتردد مثل ذلك فى كتاب الاصابة فروى عن مصادر شتى أنه لما قدم الحيرة أتى بسم فوضعه فى راحته ثم سمى وشربه ، ولم يؤثر فيه

وقد سمعنا نيتشه ـ بشير السوبرمان فى العصر الحديث ـ يقول : ان السم الذى لا يميتنى يزيدنى قوة !

فهذه بنية بطل نشأت للمجد على هذا الغرار

إسلامه

كان اسلام خالد ضربا من التسليم

كان ضربا من التسليم بمعناه « العسكرى » المصطلح عليه فى عرف القادة ورجال الكفاح

لانه اسلم او سلم تسليم القائد البصير بحركة القتال بين المد والجزر والنصر والهزيمة ، الخبير بموضع الاقدام وموضع الاحجام ، المقاتل والقتال شجاعة ، المسالم والسلم ضرورة لا محيص عنها

ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل ، ولا الجازع المنخذل . بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقدرة وحمادى اليقين بالخبرة ، يوم أسلم وسلم الى معسكر الدين الجديد. كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسه انه لن يغلبه الا الله ، وكأنه كان يقول فى قرارة ضميره : أيهزمنى أحد وليس له مدد من النبوة ؟ أيعلو سيف على سيفى وليس له سر من السماء ؟

فبلغ نهاية الايمان بنفسه يوم بلغ بداية الايمان بالله

▭

وقد كان على ذويه فى بنى مخزوم ان يحاربوا حربهم الى نهايتها ، لأن الصراع بين الجاهلية والاسلام لم يكن الا صراعا لهم قبل كل جاهلى وكل قرشى وكل عربى على التعميم

وكان معسكرهم أولى المعسكرات ان يصمد الى موقف الحسم من النضال بين الفريقين ، لأن بلاءه بادبار الجاهلية أكبر من كل بلاء ، وموقفه أمام الاسلام موقف من ينافح عن عزته وعزة بيته وعزة آبائه واجداده ، وعزة « النظام » الاجتماعى كله كما قررته الجاهلية أحقابا بعد أحقاب ، لأنه النظام الذى به يقومون وبهم يقوم

وقد ابلى أبوه فى هذا الصراع قصارى ما فى وسعه من بلاء ، وهو شرح يطول ، وتفصيل تضيق به الفصول ، ولكن اشارة واحدة فيه تغنى عن بيان طويل ، وصفحة موجزة من صفحاته تغنى عن الاطناب فى القال والقيل

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها فى حرب الاسلام أن نقول انه قد هان عليه فى هذا السبيل ان يبذل العزيزين الولد والمال

ففى بداءة الدعوة المحمدية سعى وقومه الى عم النبى ابى طالب ليسلمهم محمدا أو يتخلى عنه ، وله بديلا منه ـ عمارة بن الوليد . . . وقد وصفوه بانه انهد الفتيان واشعرهم وأجملهم فى قريش

وبعد استفاضة الدعوة المحمدية يسعى الى النبى فيمن سعى اليه من سراة قريش ليشاطروه اموالهم ويسكت عن اربابهم وعباداتهم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة الأحزاب « ولا تطع الكافرين والمنافقين »

وبمقياس هذا البذل السخى فى سبيل الدين القديم تقاس كراهة الرجل للدين الجديد ، وهى كراهة الهرم التى تبقى الى الموت ، لأنه فوجىء بالاسلام وهو يقارب الثمانين وظل على الكيد له حتى مات بعيد الهجرة وقد نيف على الخامسة والتسعين

ب

وكان خالد فتى ناشئا يوم ظهر النبى بالدعوة الجديدة ، فنفر منها كما نفر قومه اجمعون ، وزاد على النفرة لهبا من حمية صباه ، وتحفزا فتيا يسبق به أباه

فما هو الا أن بلغ مبلغ الزعامة فى القتال حتى تجرد لها

بعزيمة الفتوة وشجاعة البطولة ، ولم تنقض سنتان على موت ابيه حتى كان قائد الميمنة فى وقعة احد المشهورة ، وتولى الهجمة التى مالت بكفة النصر من جانب المسلمين الى جانب المشركين

وذلك ان النبى عليه السلام اقام الرماة من وراء جيشه وقال لهم : « قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فان رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وان رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا » . فلما ولى المشركون منهزمين وتبعهم المسلمون مغتنمين ، خالفت كثرة الرماة وصاية النبى وتصايحوا بينهم « ما مقامنا ها هنا وقد انهزم المشركون ؟ » فكانت هى الغرة التى اهتبلها خالد ولم تذهله عنها الهزيمة المطبقة بقومه ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبى جهل صاحب الميسرة وداروا من وراء جيش المسلمين ، فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم وقتلوا اميرهم عبد الله بن جبير ، وانتقضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم واختلطوا فصاروا يقتتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضا من العجلة والدهش ، وشاع أن عليه السلام قتل فى المعركة ، وقتل فيها حمزة وسبعون من الانصار ، وأرجف المرجفون بكبار الصحابة حتى ظن ابو سفيان أن ابا بكر وعمر من القتلى ، وصاح بين الصفوف : « يوم بيوم بدر والحرب سجال »

واشترك خالد فى وقعة اخرى هى وقعة الاحزاب ، او الخندق ، فكانت هى أيضا من أهول الغزوات على المسلمين وأوشكت أن تحيق بهم دوائرها لولا يقظة على بن أبى طالب ووقيعة بعض الدهاة بين أحزاب قريش وهبوب الريح التى عصفت ببيوتهم وقدورهم وزادتهم يأسا من اقتحام الخندق الذى حفره المسلمون حول المدينة ، وفى هذه الغزوة يقول القرآن الكريم : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم

اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحـا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا . اذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الأبصـار وبلغت القلوب الحنـاجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . . . »

وقد كان خالد فى هذه الغزوة يطوف بخيله حول الخندق يلتمس مضيقا يقحم منه الخيل فاعياه وفشل عمرو بن ود حين حاول العبور من احدى نواحيه . فلما حبطت حملة عمرو وقتله على بن أبى طالب ، بات المشركون ليلتهـم يقسمون كتائبهم لكل فريق من المسلمين كتيبة تدهمه مع الصباح ، فكان خالد هو الموكل بالنبى عليه السلام فى كتيبة غليظة من خيل قريش والأحزاب ، فاندفع يقاتل سحابة النهار وهويا من الليـل ، الى ان تحاجز الفريقـان ورجع المشركون وانصرف المسلمون الى قبة النبى ، فارتد خالد بعد هنيهة يطلب الغرة ، وكاد ان يظفر بها لولا حرس من المسلمين بقيادة أسيد بن حضـير تنبه له وفوت عليـه غرضه . ثم انقطع القتال وهو لا يزال على الطلب والطواف ، وكان آخر من ترك الحومة بعـد يأس الاحزاب من عبور الخندق ودخول المدينة ، فلبث هو وعمرو بن العاص على ساقة الجيش فى مائتى فارس ردءا للجيش كله ، مخافة ان يتعقبه المسلمون

□

وتصدى خالد مرة أخرى للنبى عليـه السلام فى سنة الحديبية وهو فى طريقه الى مكة . وكان النبى قد خرج اليها معتمرا فى نحو الف وخمسمائة من المسلمين لا يحملون سلاحا غير السيوف فى القرب . فاوجس المشركون خيفة

ان يكون قدومه الى البيت الحرام للقتال لا للعمرة ، وندبوا خالدا فى مائتى فارس للقائه قبل بلوغ مكة . فدنا خالد حتى نظر الى أصحاب رسول الله ، وأمر رسول الله عباد ابن بشر فتقدم فى خيله وأقام بازائه وصف من ورائهم رجاله ، ثم حانت صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف ، وهم خالد أن يغير عليه لولا نخوة من الفروسية أبت له العدوان على المسالم وقمعت فيه طمع الرئيس المغيظ على مكانته وعروض دنياه فعلت هنا كفة الفارس النبيل على كفة الرئيس الموتور ، وقال خالد يصف ذلك بعد اسلامه : « هممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا . وكان فيه خيرة . فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعا ، وقلت الرجل ممنوع »

الا أنه مع هذا بقى على لدده فى خصومة الاسلام ومعاندة نبيه دون الاصغاء له والنظر اليه . فلما صالح النبى قريشا ودخل مكة فى عمرة القضية كره خالد أن يشهد دخوله ، وتغيب من جوار البيت ريثما يعتمر المسلمون ويرجعون من حيث أتوا ، وهو معفى النظر من رؤية شىء لا يستحبه ولا يخلى بينه وبين حربه

□

كذلك كانت كراهة خالد للاسلام بعد كراهة أبيه

ومن وثباته هذه ، ولجاجه ذاك ، يغلب على الظن أن كراهته كانت من نوع تلك الكراهة التى هى أقرب الى المبارزة والمناجزة منها الى المقت والضغينة ، لأنها لا تعنى صاحبها بالبعد من موضوعها كما تعنيه بالاشتغال به والعكوف

عليه ، كأنه زميل المبارزة اللازم لاتمام الصراع واذكاء حرارته وامتحان قدرة النفس عليه

وهذه الحرارة حركة جياشة فى النفس وليست كذلك الموات الذى تنقبض عليه النفس فى الشيخوخة الفانية ، ولا كذلك الضغن الذى يتغذى بقيحه المخزون فى طبيعة منغولة معدومة الخير والنجدة

مثل هذه الحركة الجياشة فى النفس الحية الفتية كالسيل المتدفع الآتى فى واديه المحيط بجانبيه ، يظل متدفعا اتيا ما بقى فى الوادى وما انهمر عليه الغيث من ضفتيه . ولكنه الى امد لا محالة ، لانه سينتهى الى مفترق الوادى فلا يجيش ولا يتدفع ، وسيقصر عنه الغيث فلا يربو ولا يترع . وسيكون طريقه مع الوادى المفترق غير طريقه مع الوادى المحصور

والوادى هنا قد افترق فى مجراه شعبة بعد شعبة منذ عهد غير قريب ، وان لم ينته بعد الى غاية المفترق فى الارض البراح

افترق الوادى قليلا حين انقسم بيت المغيرة بين معسكر الجاهلية ومعسكر الاسلام ، وأصبح فى معسكر الاسلام اخوان حبيبان الى خالد ، وهما الوليد وهشام

وافترق قليلا يوم اصغى ابوه الى القرآن فحدث آل بيته عنه ذلك الحديث الذى ارابهم واشجاهم ، فحسبوه قد صبأ عن دينه وسألوه عن نبأ محمد فأوشك ان يقع فى قلبه انه وحى السماء لو لم ينطق لسانه بانه السحر الذى يفرق بين الرجل وزوجه والوالد وبنيه والسيد ومولاه !

وافترق قليلا يوم شهد خالد سكينة المسلمين فى طريق الحديبية وهم قائمون للصلاة ، وهجس فى خاطره ان يغير عليهم فصدته عنهم رهبة الصلاة ونخوة الفارس المحجم عن

الغدر والغيلة ، وسرى فى روعه أن لمحمد لسرا وان الرجل لمنوع

وكان لتلك الحركة الجياشة مدد من تحريك الكتائب وتجريد الطلائع واقامة الأرصاد والتقاء الجموع واتفاق الكلمة بين المشركين على الحرب والعداء ، فاذا هم يتبلبلون مختلفين بعد صلح الحديبية ، واذا بصلح الحديبية يلقى السلاح من الايدى سنين طوالا لا لقاء فيها ولا نزال ، ولا سورة من غضب ولا جذوة من غيظ مثار

ومات الشيوخ الذين كانوا يخيمون بوقارهم وجمودهم على العقول

وتهيأ الجو للسؤال : فيم هذا العداء والنضال ؟ امن اجل الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم جوارها ويحج اليها ؟ أم من اجل العصبة القومية وشرف محمد شرف العرب اجمعين ؟ أم من أجل الكرامة ومحمد يصون للعزيز كرامته ويعرف للحسيب قدره ؟

ومن اين لمحمد ذلك النصر المبين بعد النصر المبين ؟

ومن اين له تلك المهابة التى ترد عنه الاعين والايدى من قريب ؟

ومن اين له ذلك العون الذى يدركه وقد أحاطت به الهزيمة من كل فج فاذا هوناصل منها واذا هو الطارد الظافر وقد خيل اليهم أنه الطريد المخذول ؟

ومن أين للمسلمين ذلك الأدب وذلك الخشوع ؟ ومن اين للنبى بينهم ذلك السلطان الصادع والصوت المسموع ؟

لقد رآهم ورآه سيد أهل الطائف عروة بن مسعود فعاد الى قومه يقول : « والله يا معشر قريش ! جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى عظمته فما رايت ملكا فى قومه مثل محمد بين

اصحابه ، وقد رايت قوما لا يسلمونه بشيء ابدا فانظروا رايكم فانه عرض عليكم رشدا ، فاقبلوا ما عرض عليكم فانى لكم ناصح ، مع انى أخاف الا تنصروا عليه »

ولقد راوه بعد ذلك فى عمرة القضية لا يتوضأ وضوءا الا كاد المسلمون يقتتلون عليه ، واذا تكلموا خفضوا اصواتهم عنده ، ولا يحدون النظر اليه ، ورأوهم فى نظامهم ومودتهم وصدق ايمانهم وخالص نياتهم ، فاكبروهم وعز عليهم أن يصغروهم او يتمادوا فى الزراية بهم والاعراض عنهم ، وانقلبوا الى انفسهم فاذا هم مرتابون فى الغد متدابرون فى المقصد ، منهزمون وهم الاكثرون ، محجمون وهم المتربصون. فحانت الساعة لوزن الأمور ومراجعة الحاضر والمصير ، وفرضت هذه المراجعة فرضا على كل ذى بصر بالقيادة فى معارك النضال اين تفشل واين يتسع لها المجال ، فاذا بالرجلين المفطورين على توجيه الوجوه قد انتهيا الى راى فى مصير المعركة بين الجاهلية والاسلام فى ساعة واحدة ، وعلما أين يقف الدينان المتناجزان من حق النصر وعوارض الهزيمة ، وهما عبقريا قريش فى اصول القيادة على تباين السن والمذهب والمزاج : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

وفى تلك الآونة التى يشتد فيها الجذب والدفع بين الانسان وقرارة ضميره وتجب فيها الموازنة وجوبا على كل ضليع بها قادر عليها ، لم يترك خالد لنفسه ولم يلبث ان جاءته الدعوة التى تنصره على عناده وتخرجه من تردده ، وتستدعى منه البت العاجل بجوابه، وتمسح الغضاضة التى لعلها كانت تثنيه عن تلبية ضميره

وتلك رسالة من أخيه يحملها له من كلام محمد ولا غنى فيها عن جواب

قال اخوه الوليد : « ... اما بعد فانى لم ار اعجب من

ذهاب رايك عن الاسلام ، وعقلك عقلك ، ومثـــل الاسلام يجهله أحد ؟ »

ثم مضى يقول : سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اين خالد ! فقلت : يأتى الله به . فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدمناه على غيره

فاستدرك يا أخى ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة »

تلك كانت هى الدعوة التى جاءت فى أوانها

وكان اسلام خالد هو الجواب

فهى مراحله الطبيعيـــة التى لا بد له من عبـــورها بين الجاهلية والاسلام : لم يكن طبيعيا ان يلبى اول دعوة وهو هو فى قريش صاحب معقلها المنيع

ولم يكن طبيعيـــا أن يلبى الدعوة فى وطيس الحـــرب ومحتدم العداء

ولم يكن طبيعيا ان يسكن هنيهة الى الموازنة وقد انقسم بيته ثم انقسمت نفسه ثم جاءته الدعوة الكريمة فى حينها فلا يكون الاسلام جوابه المنظور

فهو قد انتقل من الاصرار ، الى القتال ، الى الموادعة ، الى الموازنة ، الى الترجيح ، الى الاجابة ، ولو عجل بواحدة من هذه الخطوات لكانت هذه العجلة هى مكان العجب وهى الأمر المخالف لطبائع الأمور

وقد أسلفنا أن الاسلام كان فى أمر خالد ضربا من التسليم ، فنعيد هنا أنه تسليم القائد فى معركة نفسية وليس بتسليم القائد فى معركة حسية وكفى ، ولهذا عناه ان يستغفر له النبى ربه عن ماضيه ، ولم يكن قصاراه ان يرحب به النبى

ويسلكه بين صحابته ومريديه . فقال : يا رسول الله ! قد رايت ما كنت اشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق فادع الله ان يغفرها لى

فاجابه النبى عليه السلام : ان الاسلام يجب ما كان قبله

فعاد خالد يؤكد رجاءه ويقول : يا رسول الله ، وعلى ذلك !

فدعا النبى ربه : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما اوضع فيه من صد عن سبيلك !

فرضى خالد واستراح

ولا يكون هذا الا تسليم القلب نفض عنه الكفر ، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح

واحرى بنا ان نرجع الى كلام خالد لبيان تاريخ اسلامه وسبب اهتدائه وتلخيص الأحاديث التى كاشف بها خلصاءه قبل لحاقه بالنبى فى المدينة ليسلم على يديه ، فانه أجمل ذلك كله اجمالا يفصح عن تلك الاطوار النفسية التى ساورته وان لم يقصد الى الافصاح عنها ، ولعل صدورها منه على البديهة ابين لها واقرب الى توكيدها من الشرح المقصود

قال : « لما أراد الله بى من الخير ما أراد ، قذف فى قلبى حب الاسلام وحضرنى رشدى وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن اشهده الا وانصرف وانى أرى فى نفسى انى موضع فى غير شىء وأن محمدا سيظهر ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية خرجت فى خيل المشركين فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه بعسفان ، فقمت وراءه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر اماما ، فهممنا أن نغير عليه ثم لم

يعزم لنا . وكان فيه خيرة . فاطلع على ما فى انفسنا من الهجوم به فصلى باصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعا وقلت : الرجل ممنوع ! وافترقنا وعدل على سنن خيلنا ، فاخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالراح قلت فى نفسى : اى شىء بقى ؟ أين المذهب ؟ االى النجاشى ؟ فقد اتبع محمدا واصحابه آمنون عنده . فاخرج الى هرقل ؟ فاخرج من دينى الى نصرانية او يهودية . أفاقيم فى عجم او اقيم فى دارى فيمن بقى ؟

« وبينما انا كذلك اذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمرة القضية ، وتغيبت فلم اشهد دخوله ، وكان اخى الوليد قد دخل مع النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك العمرة ، فطلبنى فلم يجدنى . فكتب الى كتابا فاذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . اما بعد فانى لم ار اعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام يجهله احد ؟ وقد سالنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اين خالد ؟ فقلت ياتى الله به . فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ؟ ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخى ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة »

فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج وزادنى رغبة فى الاسلام ، وسرتنى مقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورايت فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة جدبة فخرجت الى بلد أخضر واسع . فقلت : ان هذه الرؤيا حق ! فلما قدمت المدينة قلت لاذكرنها لابى بكر ، فذكرتها فقال : هو مخرجك الذى هداك للاسلام ، والضيق الذى كنت فيه الشرك . فلما اجمعت الخروج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من اصاحب الى محمد ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : اما

تري يا ابا وهب ؟ اما ترى ما نحن فيه ؟ انما نحن اكلة راس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم . فلو قدمنا عليه فاتبعناه ؟ فان شرف محمد شرف لنا ، فأبى على أشد الاباء ، وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما تبعته أبدا ، فافترقنا. وقلت : هذا رجل موتور يطلب وترا . قتل ابوه واخوه ببدر . ولقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان ... فقلت له : فاطو ما ذكرت لك...وخرجت الى منزلى فامرت براحلتى تخرج الى الى ان ألقى عثمان بن أبى طلحة ، وهو صديق لى اذكر له ما اريد . ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن اذكره ، ثم قلت : وما على وانا راحل من ساعتى ؟ فذكرت له ما صار الأمر اليه ، وقلت : انما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه ذنوب من ماء خرج ، وقلت له نحوا مما قلته لصاحبيه ، فأسرع الاجابة ... وادلجنا بسحرة فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج ـ على ثمانية أميال من مكة ـ فغدونا حتى انتهينا الى الهدة ، فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال : مرحبا بالقوم . قلنا : وبك . فقال : اين سيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟ قال : فما الذى اخرجكم ؟ قلنا الدخول فى الاسلام واتباع محمد ، قال : وذاك الذى أقدمنى . فاصطحبنا جميعا حتى قدمنا المدينة ، فانخنا بظاهر الحرة ركائبنا ، واخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا . فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أخى فقال : اسرع فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بقدومك فسر بقدومك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشى ، فطلعت فما زال يبتسم الى حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق . فقلت : انى اشهد أن لا اله الا الله وانك رسول الله . فقال : الحمد لله الذى

هداك . قد كنت ارى لك عقلا ورجوت أن لا يسلمك الا لخير »

الى ان قال : « وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قدومنا فى صفر من سنة ثمان ، فوالله ما كان رسول الله يوم اسلمت يعدل بى احدا من اصحابه فيما حزبه »

□

فهذا السرد البسيط قد يحوم بنا حول الخالجة الاولى التى حركت قلب خالد الى الايمان بالدين الجديد ، ونحسب انها قد خالجته يوم التقائه بالمسلمين فى طريقهم الى مكة قبيل صلح الحديبية . يوم ردته سكينة الصلاة عن جموع المسلمين وهم مسالمون قانتون الى جوار البيت الحرام ، ويوم بدا له أن هذا البيت العتيق غير خاسر شيئا بدعوة محمد وغلبة اصحابه على البلد الأمين ، ويوم تراءى العنت من قريش أن يذودوا ابن عبد المطلب عن كعبة آبائه واجداده ويفسحوا طريقها للوافدين من حمير كما قال الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش .

فمنذ تلك الساعة تباعد ما بين خالد وبين الشرك وتقارب ما بينه وبين الاسلام ، وطفق يتباعد من هناك ويتقارب من هنا حتى كانت مبايعته النبى على ما تقدم قبل فتح مكة بشهور

وفى تحقيق هذا التاريخ ـ تاريخ اسلامه ـ خلاف غير قليل ، ولكن التاريخ الذى جاء فى سرده المنسوب اليه ارجح التواريخ جميعا لأسباب كثيرة ، ليس بأهونها ولا أوهنها السبب النفسانى الذى يقترن بغيره . فان الوقت المشار اليه آنفا لهو أشبه الأوقات ان يتفق فيه قائد

الحرب وقائد السياسة على انتهاء الجولة بين قريش والاسلام . ولن نجد وقتا هو اولى باتفاق القائدين على اختياره للتسليم من ذلك الوقت الذى تواردت فيه الخواطر بين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ... وبعده قضى الأمر ولم يبق لمكة الا ان تفتح ابوابها طائعة لمن هجرته وهجرها تلك السنوات الثمان

وقد علم النبى عليه السلام جلية الأمر منذ قدم اليه الرفاق الثلاثة ، فقال لصحبه : رمتكم مكة بأفلاذ اكبادها ، وحق للمسلمين ان يحسبوا منذ تلك الساعة أن اولئك الرفاق الأفذاذ قد جاءوهم بمقاليد الكعبة ومسالك البلد الأمين

فالواقع ان مكة قد آذنت بالفتح منذ فارقها خالد وعمرو وعثمان بن طلحة ، فأصبحت « المدينة المفتوحة » التى نعرفها فى اصطلاح هذه الأيام ، واصبحت قضية مغلقيها فى وجه الدين الجديد قضية عبث وحبوط

ويخطىء الكاتبون الذين يزعمون انها فتحت بعد شهور لأنها أخذت على غرة وزحف عليها جيش المسلمين فى عشرة آلاف واهلها معجلون عن الأهبة والدفاع

فان النبى عليه السلام انما زحف عليها لأن قريشا غدرت بعهدها وسطت على حلفائه من خزاعة . ثم اشفقت من القصاص فأوفدت ابا سفيان الى النبى يستأمنه ويسأله مد العهد الذى ابرم بينهم فى صلح الحديبية ، فابى النبى ولم يجبه ، واحس المشركون منذ اللحظة الاولى ان المسلمين زاحفون عليهم لا محالة ، فلو ان قضية الشرك بقيت لها بقية من عزم لاستعدوا قبل السطو بخزاعة او بعده على الاثر واراحوا انفسهم من الوساطة فى التأجيل والمراوغة ، ولكنه

التسليم الذى بدأ باسلام خالد وصاحبيه قد تراخى به الوقت الى اجله المعلوم

□

فلما جاءها المسلمون دخلوها آمنين على كثرة من بها من المشركين ، وتقدم النبى صلوات الله عليه فى كتيبته الخضراء ، وتقدم سعد بن عبادة والزبير بن العوام وخالد بن الوليد الى ابوابها فدخلوها كل من الباب الذى وكل اليه ، ونهى النبى أصحابه عن القتال فيها فلم يحدث قط قتال الا من صوب خالد بن الوليد ، لأن صفوان بن امية وسهيلا ابن عمر وعكرمة بن ابى جهل رصدوا للباب الذى وصل منه وجمعوا له جمعهم فمنعوه ورموه بالنبل وشهروا عليه السلاح ، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين أكثرهم من قريش واقلهم من هذيل ، وولى السادة والأتباع بعد ذلك فى هزيمة نكراء

أهو تدبير أم مصادفة احكم من التدبير ؟

خالد دون غيره تصادفه جنود رفقائه بالأمس فى جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم وقد كانوا معا يرمون المسلمين عن قوس واحدة !

انه حارب فى صفوف الاسلام عرب الجزيرة وعرب العراق والشام ، وحارب فى صفوف الاسلام جيوش الفرس والروم ، وحارب فى صفوف الاسلام كل من برز لتلك الصفوف ؛ فما بال الجاهلية القرشية وحدها ينصرها على المسلمين ولا ينصر المسلمين عليها ؟ واين يلتقى بها ان فاته لقاؤها فى ذلك اليوم ؟ لقد لقيها اذن فى ساعتها التى لا ساعة بعدها ، وقال النبى حين سمع بضربته : الم انه عن القتال ؟ قالوا : انه

خالد قوتل فقاتل ! فقال : « قضاء الله خير » ... ثم قال :
« لا تغزى قريش بعد هذا اليوم الى يوم القيامة »
وغرائب الاتفاق هكذا تكون حيث تكون

مع النبي

أحاط بالنبى عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون في الأعمار والاقدار ، مختلفون فى البيئات والأحساب ، مختلفون في الأمزجة والاخلاق ، مختلفون فى ملكات العقول وضروب الكفايات، مختلفون فى فهم الدين وبواعث الاسلام، فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الآيات على رحابة الأفق وتعدد الجوانب فى نفس ذلك الانسان العظيم ، وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيدا من العلم بعظمة هاديهم وسيدهم وموجه كل منهم فى وجهته التى هو أصلح لها وأقدر عليها ، وهم يلتقون أول الأمر وآخره في ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التى فطرها الله لهداية الامم وقيادة الرجال ، بل لقيادة القواد الذين يروضون الامم والرجال

وما من عظيم من هؤلاء العظماء الا كان تقدير النبى اياه بقدره الصحيح آية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس وسبره العميق لأغوار الطبائع والافكار ، ولكن تقديره لخالد بن الوليد على التخصيص كان آية الآيات فى هذا الباب ، لأنه عليه السلام لم يكبره اكبار السياسي الذى يستجمع القوة حواليه وينزل كل زعيم منزلة قومه من الوفرة والعزة والجاه والعتاد ، وانما اكبره لأنه عرف اقصى مستطاعه قبل أن يظهر من مستطاعه كثير ، وسماه « سيف الله » وبينه وبين الوقائع التى استحق بها ذلك اللقب الجليل بضع سنوات . بل سماه سيف الله وهو قافل من معركة يتلقى المسلمون من عادوا منها بالنكير والتشهير،

ويحثون فى وجوههم التراب ويصيحون بهم أينما وجدوهم: يا فرار ! يا فرار !... فررتم من سبيل الله !

لم يكبر النبى خالدا كما أكبر أبا سفيان تألفا له ورعيا لمكانه فى قومه ، ولكنه أكبره للصفة التى سيوصف بها فى تاريخ الاسلام بعد اهتدائه إليه ببضع سنوات

أكبره لأنه « سيف من سيوف الله » والناس لا يرون الا الهزيمة والارتداد ، ولم يكن النبى موليه القيادة فى المعركة التى ارتد منها بجيش المسلمين ، فيقول قائل انه ينصر قائدا هو المسئول عن اختياره ، وهو من ثم المسئول عن ارتداده أو فراره . ولكنه ولى آخرين وترك اختياره بعدهم لمشيئة اخوانه فى الجيش ، فاختاروه بعد ذلك مجمعين

كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الاكليل من رءوس القادة وهم منتصرون ظافرون ، ولكنه موضع يخفى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين اذا لم يدلهم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه فى ظلام المحنة والبلاء

وقد صحب خالد النبى ثلاث سنوات ، وعهد اليه النبى فى كثير من الاعمال الصغيرة وأشركه فى بعض الاعمال الكبيرة : ومنها غزوة مؤتة وغزوة حنين وسرية بنى جذيمة، فما من هذه الاعمال الكبيرة عمل واحد لم يتسع فيه المقال للشانئ والحاسد ولم ينظر اليه الناظر من وجهين متعادلين تارة الى جانب العذر وتارة الى جانب الملام ، ولو أنه رضى الله عنه قضى نحبه فى السنة العاشرة للهجرة أو بعد ذلك بقليل لعجب المؤرخون كيف سمى « سيف الله » وفيم أستحق هذا اللقب الذى لا يعلوه لقب فى الاسلام ، ولكن النبى وحده قد عرف قبل الحادية عشرة للهجرة أنه حقيق بذلك اللقب على أوفى مداه ، وسماه به قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن

يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للاسلام جزيرة العرب ويضم اليها العراق والشام ... وهى الاعمال الجسام التى من أجلها يدعى اليوم سيف الاسلام

وانما هو البصرالعلوى الذى يلمح هذهالقدرة فى معدنها حيث ينظر النـــاس فيرون خالداً مرتدا من غزوة مؤتة أو ماخوذا مع الخيل وهى تولى فى أول المعركة من ميدان حنين، أو صانعا فى سرية بنى جذيمة ما يبرأ منه النبىعليهالسلام

ولهــذا ينبغى أن توزن هذه الاعمال بميزانها الصحيح لاقامة خالد نفسه فى مقامه الصــحيح ، فهى ولا ريب من المعدن الذى نجمت منه حروب الردة وفتوح العراق والشام

١ ـ سرية مؤتة

واول هذه الاعمال قد اشترك فيه متطوعا بعد اســلامه بشهرين أو ثلاثة أشهر ، وهو سرية مؤتة التى ســيرت الى البلقاء

وكان سبب هذه الغزوة أن النبى عليه السلام أرســل وفدا الى ذات الطلح بمقربة من الشام ليدعوهم الى الاسلام، فقتلوا جميعا وعدتهم خمسة عشر الا رئيسهم نجا منالقتل وحده ولعلهم أبقوا عليه عمدا ليخبر بما رآه ، عــلى ديدن المنكلين فىابلاغ مثلاتهم الى من يهددونه بالتمثيلوالتنكيل

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدى رسولا الى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغسانى وهو فى الطريق

فاشفق عليه السلام من عقبى السكوت على كلتا الفعلتين وهو غير مأمون ... وعلم أن قبائل الجزيرة العربية نفسها قد أذعنت للدعوة الجديدة ، ومنها المتربص للغدر متى قدر عليه والموهونالايمان الذى لا يصبر علىالاغراء والاستثارة، فاذا استضعف الغســانيون وجيرأن الغسانيين شأن النبى

وافلتوا من جـرائر فعلة كتلك الفعلة اللئيمة جرأهم ذلك عاجلا على اقتحام الصـــحراء للنقمة من المســلمين ، فتهب القبائل لنصرتهم فيطريقهم وتمدهم الدولةالرومانية بالمال والسلاح تقريرا لهيبتها فى عيون أولئك إلبدو الذين جهلوا باســـها ووهموا أنهم قادرون عليهـا ! اذ لا مطمع للدولة الرومانية فى مقاتلة المسلمين واخضاع الجزيرة بغير هـــذه الوسيلة ، ولا سبيل الى تسيير الجنود الرومانيين بنظامهم المعروف ومعداتهم الكثيرة لمنازلة المسـلمين فى عقر دارهم من وراء المفاوز والنجود ، وتســـييرهم بحراً الى شـــواطىء الحجاز لا يغنيهم عن استعانة بأناس منالعرب وأهل البادية، وهم أولى أن يستعينوا على هـذا المطلب باتباعهم الأقدمين فى تخوم الشام

فلم يجد عليه السلام مناصا منالثار لاصحابه المقتولين، وجرد لتأديب المعتدين جيشا صغيرا لا تتجاوز عدته ثلاثة آلاف ، وكان فى ذلكالجيش خالد بن الوليد ونخبة منأقدم الصحابة عهـدا بالاسلام ، فلم يتول خالد قيادته لانه كان على الأرجح أحدثهم عهدا بالدخـول فيه ، وتولاها زيد بن حارثة ، فان أصيب فالرئيس جـعفر بن أبى طالب ، فان أصيب فعبد آلله بن رواحة ، فان أصيب فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم »

وأمرهم عليه السلام أن يذهبوا الى حيث قتل الرسـول فيدعوا القوم الى الاســـلام ، فان أجابوا والا فالقتـــال ، وأوصاهم : «ألا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا فانيا ولا متعزلا بصومعة ، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء »

ولا شك أن هذا الجيش انماكان بالوصف العصرى «حملة تأديبية وبعثة استطلاع » يقاد على هذا الاعتبار ومن أجل

هذه الغاية،ولا يرآد به بداهة أن يحطم قوة الدولةالرومانية أو يفتح البلاد التى كانت يومئذ فى يديها

فمضى لهـذه الوجهة حتى نزل معانا وأقام بها ليلتين ، وسمع المسلمون هناك أن هرقلا قد عسكر بمآب فى مائة ألف منالروم ومائة ألف من قبائل لخم وجذاموالقين وبهراء وبلى على أهبة اللقاء

وقد يقع فى الخاطر أن الروم علموا بمسير جيشالمسلمين فأعدوا هذه الجحافل الجرارة ثم سيروها الى تخوم الدولة فى مدى الايام التى مضت من خروج جيش المسلمين الى بلوغهم أرض معان . وهو خاطر بعيـــد جد البعد لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها فى مثل هذه السرعة ، ولما يبدو من ضخامة هذه الجحافل بالقياس الى القوة الاسلامية التى مهدوا للقائها ، ولم يكن ليفوتهم أن يعلموا بحقيقتها لو أنهم تلقوا الخبر بخروجها ممن رآها

والأرجح أن هرقل انما كان فى جموعه هنالك فى زيارة الشكر التى نذر لله أن يؤديها اذا هو ظفر بالفرس ورد منهم صليب الكنيسة الكبرى الذى حملوه معهم يوم فتحوا بيت المقـدس ، وربما كان هرقل قد بارح بيت المقدس فى ذلك الحين وتخلفت جيوش ركابه لأداء هذه الفريضـــة معه أو للقيام بمراسم الحفاوة فى تلك الزيارة التاريخية

ورأى المسلمون أن مدد الروم حاضر على مقـربة منهم ، وان الحرب بين عسكرين على هذا التفاوت البعيـد عمل غير مجد ولم يكن منظورا ولا مقصـــودا عند مسـير الجيش من المدينة ، فرجع بعضـهم وتمهل الأكثرون منهم ليستأذنوا النبى فيما يصنعون ، وغلبت حماسة الشاعر وحمية الشهيد على عبد الله بن رواحة فانتهر المترددين والمثبطين وقال لهم: « يا قوم ! والله ان التى تكرهون للتى خرجتم تطلبـــون :

الشـــهادة • وما نقاتل آلنـــاس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما هي آحدى الحسنيين : اما ظهور واما شهادة ! »

فاستمعوا اليه ولم يشاءوا بأية حال أن يرجعوا قبـــل الانتهاء الى مقصدهم الذى خرجوا من أجله وهو ابلاغ الدعوة الى قاتلي الرسول النبوى وابراء الذمة اليهم قبل القصاص، ان وجب قصاص

فتقدموا من معان الى مؤتة على مسيرة نحو ليلتين ، وفيها حصن للغسانيين يقيم به أمير منهم فى خدمة الرومان

واحتمي الأمير الغساني منهم بحصنه ثلاثة أيام لعله كان ينتظر فيها مددا أو أمرا من رؤسائه ، ثم التقى الفريقان على مزرعة في جوار البـــلدة ، فاستـــتمات من بقي من جيش المسلمين ، وحاربوا على ما يظهر وهم مفاجأون ، لأننـــا لم نسمع فى أخبـــار الوقعة بتوجيه الدعوة أو الاجابة عليها ، ولأن قائدا منهم أعجل عن طعامه ولم يذق القوت ساعات ، فلما فوجئوا بالقتال لم تدع لهم المفاجأة من خطة غير خطة الصمود للخطر والثبات في وجهه مخافة المصاب الأكبر فى هذه الحالة : وهو مصاب الذعر والدهشة والملاحقة بلا هوادة

وكأنما استحى القادة الثلاثة أن يرشحوا للموت ويرجعوا دونه ابتغاء النجاة، فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل ، وأحاط القوم بجعفر بن أبي طالب وهو يحمل اللواء ويثير من حوله نخوة المسلمين ، فأنحوا عليه بالضرب الدراك حتى قطعت يمينه ثم قطعت شماله ثم ضم اللواء الى عضديه ولبث يناضل عنه الى أن مات

ودعى ابن رواحة الى الرئاسة فجاءه ابن عم له بعرق من لحم وقال له : « شد بهذا صلبك فانك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت » فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ، ثم سمع

الحطمة فى ناحيــة المعترك فالقاه من يده وجرد سيفه وهو ينشد :

يا نفس الا تقتلى تموتى هذا حمام آلموت قد صليت
وما تمنيت فقــد أعطيت ان تفعلى فعلهما هــديت

فطفق يصول بين الصفوف ويهدر بالشعر حتى قتـــل والمعركة فى أشدها

فما هى الا لحظة حتى دبر المسلمون أمر الرئاسة بوحى البديهة ونور العقيدة وهداية الفداء التى تهدى الى المصلحة الكبرى وتغفل كل مصلحة دونها · واذا باللواء يأخذه فى تلك اللحظة ثابت بن أقرم من بنى آلعجلان وينـــادى فى أصحابه : « يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم » · قالوا : « أنت » · قال : « لا · ما أنا بفاعل » · فاتفقت الكلمة على خالد بن الوليد فاذا هو يتولى القيادة فى حينها ويصنع لساعته خير ما يصنع فى ذلك الحين

وخير ما يصنع فى ذلك الحين هو آلارتداد المأمون

وهو أصــعب من النصر فى بعض المآزق · لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له واحتمال الشدة فيه · ولــكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو فى أضعف الموقفين · الا أن تكون له خبرة بالقيــادة تكافىء الرجحان فى قوة العدو الذى يرتد بين يديه

وأول شىء ينبغى أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع فى روع عدوه أنه لا ينوى الارتداد بل ينوى الهجوم أو يقصد الى الحيلة

فصمد فى الميدان حتى المساء

ثم بدل مواقف الجيش تحت الليل فنقل الميمنة الى الميسرة ونقل الميسرة الى الميمنة وجعل الساقة فى موضــع المقدمة

والمقدمة فى موضع الساقة ، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عنـد طلوع الصباح · فلما طلع الصباح على الفريقين اذا بكل طائفة من طوائف الغسانيين والروم ترى قبالتها وجوها غير الوجوه وأعلاما غير الاعلام ، واذا بالجلبة مع هذا الاختلاف فى الوجوه والاعلام توهم القوم أن مددا جديدا اقبل على جيش المسلمين ، وكانوا قد ذاقوا منهم أمر المـذاق بغير مدد وهم مفاجأون ، فلما ذهب خالد يدافع القوم ويخاشى بجيشه لم يتبعوه حـذرا من الكمين وتوقعا للاحاطة بهم من ورائهم ، وأبلى خالد فى هذه المدافعة والمخاشاة بلاء لم يبله قط فى غزواته الكبرى على كثرتها ، فاندقت فى يده تسعة سيوف ولم تصبر معـه الا صفيحة يمانية ، وكان هذا التراجع المحمى بشجاعة المستميت غطاء صالحا للجيش الصغير فى مواجهة الجيش الكبير · فقفل الى المدينة بسلام ، وعرف خالد منذ ذلك اليـوم بلقبه الذى أضفاه عليه النبى وهو سيف الله ، وعاد الناس يقولون مع النبى انهم الكرار باذن الله وليسوا بالفرار

وقد سمعنا فى عصورنا هذه بالألقاب الكبار تضفى على القادة لأنهم نجحوا فى خطة ارتداد لا محيص منها · فتلك هى السنة النبـوية تسبق النظم العصرية الى تقدير القائد البارع بقيمة النجاح فى ارتداده كما تقدره بقيمة النجاح فى تقدمه وانتصاره · ولو أن خالدا ملكته فطرة المجـازفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العقبى أيما سـوء وتعرضت الدعوة الاسلامية لمحنة لا نعـرف مداها الآن · ولربما تعرضت لهذه المحنة من جانب الجزيرة العربية قبل أن تتعرض لها من جانب الروم والغسـانيين · لان الجيش قد خرج من المدينة تأديبا لأناس متصلفين قتلوا رسـولا واحـدا أو قتلوا وفداً لا تجاوز عدته خمسة عشر · فاذا تورط هذا الجيش فى الزحف حتى اصطلم كله ولم يعد منه

احد ، فكيف يكون وقع هـذا التاديب المعكوس فى نفوس البادية المتحفزة أو فى نفوس اهل مكة ولما تسلم مفاتيحهـا للمسلمين ؟ انه ليبعث السخرية والاستهانة من حيث أريدت له الهيبة والمنعة ، وانه ليثير من الفتن ومساوىء الظنـون ما يصعب استدراكه فى سنين

ولكن الجيش قد عاد وأبلى فى أعدائه وتسامعت الجزيرة بعدد الجحافل الهرقلية التى حسبتها مرصدة له ولم تقدر على تمزيقه ولا أصابت منه غير اثنى عشر قتيلا منهم القادة الثلاثة الذين ندبوا للشهادة قبل خروجه ، فالسرية اذن قد نهضت بأمانتها ووقع فى نفوس المسـلمين من فرط الثقة بباسهم أنها كانت قادرة على جهاد أعظم من جهادها وثبات أطول من ثباتهـا · وهى مغالاة فى القوة والبأس خير من المغالاة فى الضعف والخور ، ولا ضرر منها ما شفعتها تلك البصيرة العلوية التى تضع الأمور فى نصـابها ، وتصف النجاح بصفاته ولو بدا للناس فى ثياب الاخفاق

٢ ـ بنو جذيمة

وقد أثنى النبى على خالد فى مهمة لم ينـدبه لها ولم يرشحه لها مرشح غير كفاءته واتفاق رأى المسلمين فيها

ولكنه لامه وبرىء من عمله حين أخطأ فى مهمة ندبه لها بعد فتح مكة وهى السرية التى قادها الى بنى جذيمة ليكشف عن طويتهم ويدعوهم الى الاسلام

فبعد فتح مكة توجهت عنايته عليه السـلام الى تطهير العوادى المحيطة بها من عبادة الاصنام ، فأرسـل السرايا الى قبائلها لدعوتها والاستيثاق من نياتها · ومنهـا سرية خالد الى بنى جذيمة فى نحو ثلثمائة وخمسين من المهاجرين والانصار وبنى سليم · أرسلهم دعاة ولم يأمرهم بقتال

وكان بنو جذيمة « شر حي في الجاهليـــة يسمون لعقة الدم ، ومن قتـــلاهم الفاكه بن المغيرة وأخوه عما خالد بن الوليد ، ووالد عبـد الرحمن بن عوف ، ومالك بن الشريد وأخوته الثلاثة من بني سليم في موطن واحد » وغير هؤلاء من قبائل شتى

فلما اقبـل عليهم خالد وعلموا أن بني سليم معه لبسوا السلاح وركبوا للحرب وابوا النزول • فسألهم أمسلمون انتم ؟ فقيل ان بعضهم أجابه نعم ! وبعضهم أجابه : صبأنا! صبأنا ! أي تركنا عبادة الاصـــنام ، ثم سألهم : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوهم فاخذنا السلاح ! فناداهم : ضعوا السلاح فان الناس قد أسلموا : فصاح بهم رجل منهم يقال له جحدم: ويلكم يا بني جذيمة ! انه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح الا الاسار وما بعد الاسار الا ضرب الاعناق ، والله لا أضع سلاحي أبدا • فما زالوا به حتى نزع ســـلاحه فيمن نزع وتفرق الآخرون • فأمر خالد بهم فكتفوا وعرضهم عـــلى السيف ، فأطاعه في قتلهم بنو سليم ومن معه من الاعراب، وأنكر عليه الانصار والمهاجرون أن يقتل أحدا غير مأمور من النبي عليه السلام بالقتال • ثم انتهى الخبر الى النبي فرفع يديه الى السماء وقال ثلاثا : « اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد » وبعث بعلي بن أبي طالب الى بني جذيمة فودى دماءهم وما أصيب من أموالهم ••• قيل انه « كان يدي حتى ميلغة الكلب » ويسألهم : أبقي دم أو مال لم يود لكم ؟ فلما اكتفوا ورضوا فرق بينهم بقية المال « احتياطا لرسول الله » •

وقد سأل رسول الله فتى من جذيمة انفلت اليه لينبئه نبأ خالد مع آله وذويه : هل أنكر عليه أحد ! قال نعم • قد أنكر عليه رجل أصفر ربعة ورجل طويل أحمر ، فاشتدت

مراجعتهما.وكان عمر بن الخطاب بمجلس رسول اللهفقال : أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى بنى حذيفة

ويعزى الى خالد أنه استند فىقتالهم الى قول عبد الله بن حذافة « ان رسـول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الاسلام »

وقد عم النكير عـلى الحادث بين أجلاء الصحابة من حضر منهم السرية ومن لم يحضرها،واشتد عبد الرحمن بن عوف حتى رمى خالدا بقتل القوم عمدا ليـدرك ثار عميه اللذين قتلهما بنو جذيمة مع عوف أبى عبد الرحمن ورجل من بنى امية . وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد خرجوا تجارا الى اليمن ثم عادوا ومعهم مال رجل من بنى جذيمة قضى نحبه هنـاك يحملونه الى ورثته وأهله . فاعترضهم جذمى فى رهط من قبيلته يدعى خالد بن هشام وزعم أنه وارث المال وأحق به من غيره . فمنعوه ينظرونه أن يصلوا بالمال الى أهل الميت. فغضب وقاتلهم بالرهط الذى معه فقتـل عوفا والفاكه بن المغيرة ثم عمد عبد الرحمن الى خالد بن هشام هذا فقتـله بثأر أبيه . وهمت قريش بغزو بنى جـذيمة لولا أن مشى بعض العقلاء بينهم بالصلح فتصالحوا على الدية والمال

ومن الاسراف أن يظن بخالد بن الوليد أنه تعمد قتـل أناس وهو يعلم أن دمهم حرام ويتخذ من مهمة النبى ذريعة الى شفاء ترة قديمة . فأدنى من ذلك الى القصـد فى فهم الحقيقة أن نبحث عن دواعى اللبس ودوافع الطبع التى تدفع خالدا خاصة الى مثل هذا التصرف ، فان كانت هذه الدواعى وهذه الدوافع قائمة مفهومة فهى تفسير لما حـدث وفيها الكفاية ، وان لم تكن قائمة ولا مفهومة فهنالك يتفسح مجال الظنون والفروض لمن يشاء

وقد كانت دواعي اللبس ودوافع الطبع قائمة مفهومة فى مقتلة بني جذيمة • فان البوادى كلها حول مكة كانت تزخر بالشر وتتحفز للوقيعة فى تلك الآونة بعد تسليم مكة • فلم تمض أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها متجمعة فى العدة الكاملة والعديد الوافر لمباغتة النبى وجمعه ، فاذا ارتاب خالد فى نيات طائفة من أهل البادية مشهورين بالشراسة والغدر وهم يلقونه بالسلاح فله فى ارتيابه وجه لا يخفى ، واذا أضيف الى ذلك تلجلج القوم فى اعلان اسلامهم والافضاء بنياتهم فليس اللبس هنا بعازب عن بال المتوجس فى أشباه ذلك المقام

وقد يغنى الشعر والقصص فى الكشف عن شعور القوم هنا ما ليس يغنيه التاريخ وتسلسل الرواية ، فمن كلام أحد الوهبيين فى خطاب بنى جذيمة بن عامر يسوغ لنا أن نفهم أنهم لم يكونوا متفقين على الاسلام والمسالمة ، وذلك اذ يقول :

دعونا الى الاسلام والحق عامرا فما ذنبنا فى عامر اذ تولت
وما ذنبنا فى عامر لا أبا لهم لئن سفهت أحلامهم ثم ضلت

وقال أحد الجذميين :

فلا قومنا ينهون عنا غواتهم ولا الداء من يوم الغميصاء ذاهب

وفى قصة رواها محمد بن اسحاق بن يسار ـ وهو من الثقات ـ شواهد على اصرار بنى جذيمة وعنادهم الى ما بعد الاسار والانذار ، وفحوى هذه القصة كما أثبتها صاحب كتاب الأغانى حيث نقلت ببعض التصرف : « أن خالدا بن الوليد كان جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم فسئل عن غزوته بنى جذيمة فقال : ان أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدثت • فقال : تحدث • فقال : لقيناهم بالغميصاء عند وجه الصبح • فقاتلناهم حتى كاد وجه الشمس يغيب، فمنحنا الله أكتافهم فتبعناهم نطلبهم ، فاذا بغلام له ذوائب

على فرس ذنوب فى أخريات القوم ، فبوأت له الرمح فوضعته بين كتفيه ، فقال : لا اله • فقبضت عنه الرمح ، فقال : الا اللات أحسنت أو أساءت • فهمسته همسة أذريته وقيذا ـ أى مشرفا على الموت ـ ثم أخذته أسيرا فشددته وثاقا ، ثم كلمته فلم يكلمنى واستخبرته فلم يخبرنى ، فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بنى جذيمة يسوق بهن المسلمون • فقال : أيا خالد ! قلت : ما تشاء ؟ قال : هل أنت واقفى على هؤلاء النسوة ، فأتيت على أصحابى ففعلت وفيهن جارية تدعى حبشية ، فقال لها ناوليني يدك ، فنـاولته يدها فى ثوبها • فقال : أسلمى حبيش قبل نفاد العيش ، فقالت : وأنت حييت عشرا أو تسعا وترا وثمانية تترى »

قال : « وتناشدا الاشـــعار حتى قتل وأقبلت الجارية ووضعت رأسه فى حجرها وجعلت ترشفه وتبكى ••• » الى آخر القصة فى الجزء السابع من الأغانى وهى على ظهور الاختراع فى بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بنى جذيمة من سرية خالد

فاذا صح مع هذا أن خالدا تلقى من عبـد الله بن حذافة السهمى أمرا بقتال بنى جذيمة نقلا عن النبى عليه السلام فهو خليق أن يعتمد على الفتوى من أمثاله لحداثة اســلامه وقلة علمه بفقه الدين وأحكامه ، وهى عـلى أية حال رواية لا تغفل كل الاغفال فى صدد البحث عن أخبار هذه السرية

والجو كله بعد هذا وذاك ـ سواء فى البادية أو فى مكة ـ هو جو الحرب والريبة وجو التربص والنفور ، فلا عجب أن تختلف فيه النوازع والآراء وأن تستطار فيه دواعى الشر والنقمة ، وأن يتطرق اليه اللبس وتتعذر فيه استبانة الوجه الصراح

وعند خالد دواقع الطبع الى جانب دواعى اللبس واختلاط الآراء ، وهى الدوافع التى قد نعد منها حـداثة السن فى

ذلك الحين ، ومنها أنه تنـــاول الموقف كما يتناوله القائد المطبوع على القتال في الصحراء ، ويحدث للقائد فى هـــذا الموقف كثيرا أن يفرق بين ضربين من التسليم : هما تسليم المراوغة والختل وتسليم الاذعان والنصيحة ، ولاسيما تسليم العدو المتهم المتردد الذى يحيد عن الصراحة ويفند أناس منه مقال أناس آخرين

ومن دوافع الطبع عند خالد تلك الصرامة التى ينشأ عليها كل من نشأ فى مثل بيئته من الجاهلية ، وتلك الشدة التى تثيره اليها أعصابه ويومىء اليها تفزعه فى نومه ومشاركة اخوته فى عوارضها الموروثة على نحو من الانحاء ، وهى ولا ريب تلك الشدة التى عناها عمر بن الخطاب حين قال : «ان فى سيف خالد لرهقا » وهو من أعرف النـــاس به وأقربهم اليه ، وهى التى توقعها جحدم أخو بنى جذيمة حين صـــاح بقومه محذرا اياهم من القاء السلاح : ويلكم يا بنى جذيمة. انه خالد !... كأنها خليقة معهودة منه لا تحتاج الى تأويل بعيد

وندرت فى تاريخ الحروب القديمة والحديثة حرب تدور على العقيدة الدينية أو الحمية الوطنية لا تحصى عليها فلتة من أشباه هـذه الفلتات ، ولا يقع فيها نذير السيف حيث ينبغى أن يقع بشير السلام

ولا يبعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته جفوة لبنى جذيمة فجنح به شعوره الى سوء الظن بهم وقلة الطمأنينة اليهم ، من حيث لا يقصد الترة ولا يتعمد الانتقام

فكل هذا أقرب الى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبى على دخل وسوء نية ، وهو الرجل الذى حارب أصدقاءه وأقرب الناس اليه على أبواب مكة ، وله ندحة عن حربهم لو تعمد اجتنابها أو كان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع الى صدق النية فى اطاعة النبى عليه السلام

ومهما يلم اللائمون أو يعذر العاذرون فى هـــذه الزلة فمقطع القول فيها بين المنصفين أنها خطأ وأن الابقـــاء على خالد بعدها صواب • لأن صواب الابقاء على خدمته بعـد غزوة بنى جذيمة قد ظهر أيما ظهور فى حروب الردة وحروب الفرس والروم

وذلك مثل من تربية النبى عليه السلام لأفذاذ الرجال

ويتجلى تمام هذا المثـــل باعطاء الرجال فرص المراجعة والاصلاح فى أمر يشبه الأمر الذى أخطاوا فيه ، وموقف قريب من الموقف الذى عرضهم للملامة ، وهذا الذى توخاه عليه السلام حين أرسل خالدا دون غيره الى بنى المصطلق ـ وهم من بنى جذيمة ـ ليستخبر له خبرهم ويتبين الحق فيما بلغه عن ارتدادهم ، وكان الوليـد بن عقبة قد أخبره أنهم ارتدوا عن الاسلام • فندب عليه السلام خالدا « وأمره أن يثبت ولا يعجل • فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه فلما جاءوه أخبروه بأنهم متمسكون بالاســـلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه فرجع الى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره »

وهو مثل ينبىء عن كثير ، وقد ينبىء فيما ينبىء عنه أن خالدا لم يتعسف كل التعسف فى شكه الأول ببنى جذيمة على اختلاف بيوتهم ، لان الشك فيهم ما زال يتكرر بعد ذلك بشهور ، وما زال يدعو الى تلقى الاشاعة عنهم وايفاد الوفود اليهم مرتين للتمحيص والاستخبار

٣ ـ غزوة حنين

ولم تمض أيام معدودات على مقتلة بنى جذيمة حتى لمس خالد موضع الثقة من نفس النبى فى حادث من اكبر حوادث الاسلام وهو غزوة حنين

لمس هذه الثقة فى غزوة حنين مرتين : مرة فى اسناد قيادة

الخيل اليه على طليعة الجيش ، ومرة فى سؤاله عنه وعنايته به بعد هزيمة الخيل مولية عند اشتباك الجمعين

وحق خالد فى تلك الثقة انما يستبين من عرض الغزوة كلهـا لجلاء الاسـباب التى أوقعت الهزيمة الأولى بجيش المسلمين ، ولا يد فيها لخالد من قريب أو بعيـد ... بل لعلها توحى الينا ان هزيمة خيله يومئذ انما كانت كصـد الأجسام للأجسام ضرورة مادية لا دخـل فيهـا للعوامل النفسية ، أمام جارفة من الجوارف القوية ، تأخذ ما امامها من انسان أو حيوان ومن شجاع او جبان

فقد فتحت مكة والاعراب من حولها ثائرون محنقون ، وعلموا يومئذ انها الوقعة الفاصلة وانه لا مطمع بعـدها فى مكافحة النبى اذا تطاولت الايام على قيام دينـه فى البلد الحرام وموطن الكعبة والأصنام . فاجتمعت قبائل همدان من هوازن وثقيف وجشم ومشى بعضهم لبعض يقولون : «ان محمدا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهية له عنا . فلنغزه قبل أن يغزونا » واستنفروا القبائل فلباهم من أقربائهم عدد كبير منهم بنو سعد بن بكر الذين تربى بينهم النبى وهو رضيع

وتولى قيادتهم مالك بن عوف النضري وهو فتى جرىء فى نحو الثلاثين يجمع الى غطرسة الامارة وحمية الفروسية حدة الشباب ولدد الخصومة والعناد ... فساق أموالهم ونساءهم وابناءهم ، وأمرهم اذا رأوا المسلمين « أن يكسروا جفون سيوفهم ثم يشدوا شدة رجل واحد » . فاما فوز واما فناء . وصفت الخيل ثم الرجالة المقاتلة ثم الابل عليها النساء ثم صفت الغنم . ثم صفت النعم فى حراسة لئلا تفر والجيش مشتغل عنها

وساله دريد بن الصمة حكيم القوم : ما لى اسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ؟ قال : اردت ان اجعل

خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فسخر دريد برايه وقال له : رويعى ضأن والله ! وهل يرد المنهزم شىء ؟ انها ـ اى الحرب ـ ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ، فرماه مالك بالخرف ولج فى عناده ولمح فى بنى هوازن ميلا الى كلام دريد فجمح به غضبه العارم وأقسم « لتطيعنى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ! »

فهى عزمة رجل مستميت لا يبالى ما يصنع بنفسه أو بقومه فى سبيل قهر المسلمين

ونمى الخبر الى النبى فخرج فى الفين من أهل مكة حديثى العهد بالاسلام وعشرة آلاف من أصحابه الذين قدموا معه من المدينة . وقيل انهم كانوا جميعا ثمانية آلاف

واعوزه السلاح فاستعار من بعض المشركين دروعا فأعطوه ثلاثين أو اربعين درعا ـ وقيل مائة درع ـ بما يكفيها من السلاح ، واستعار من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، فأعاره اياها وهو يقول : كأنى انظر الى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين

واخرج خالد على طليعة الجيش فى مائة فارس من بنى سليم

قال الحارث بن مالك : خرجنا مع رسول الله ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسرنا معه الى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات انواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما . فرأينا ونحن نسير مع رسول الله سدرة خضراء عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط . فقال رسول الله : (الله أكبر . قلتم ـ والذى نفسى بيده ـ كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا الها كما لهم آلهة) !

وكان فى الجيش كثير من امثال هؤلاء المسلمين المحدثين ، ومعهم فى ساقة الجيش جمع من المشركين بين رجال ونساء ينظرون ما يكون ، وكان فيهم ابو سفيان الذى قال حين راى بوادر الهزيمة : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! وفيهم كندة بن الحنبل الذى صرخ شامتا متعجلا : الا قد بطل السحر اليوم ، وصرخ معه آخرون يقولون : اليوم ترجع العرب الى دين آبائها

وكان الغالب على جيش المسلمين فى خروجهم قلة الاكتراث بعدوهم . فقال ابو بكر الصديق : لن نغلب اليوم من قلة ! ونسبت هذه الكلمة الى غيره ، ولكنها قيلت على التحقيق لما جاء فى القرآن الكريم : « اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا »

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاة الظهر فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله ! انى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبلا فاذا انا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا الى حنين . فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا ان شاء الله . ثم سأل من يحرسنا الليلة ؟ قال انس بن ابى مرثد : انا يا رسول الله . فأمره عليه السلام ان يستقبل الشعب حتى يكون فى اعلاه ، وقال له : لا نغرن من قبلك الليلة

فلما اصبحوا سأل النبى : هل احسستم فارسكم ؟ يعنى ذلك الحارس المستطلع . قالوا : يا رسول الله ما احسسنا . فجعل عليه السلام يصلى ويلتفت الى الشعب ، حتى اذا قضى صلاته قال : ابشروا فقد جاء فارسكم ! فجعل ينظر الى خلال الشجر فى الشعب واذا هو قد جاء حتى وقف وقال : انى انطلقت حتى اذا كنت فى اعلى هذا الشعب حيث امرنى رسول الله فلما اصبحت طلعت الشعبين كليهما

فنظرت فلم ار أحدا ، فسأله : هل نزلت الليلة ؟ قال لا . الا مصليا أو قاضى حاجة

وروى مسلم من حديث عكرمة بن عمار عن اياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : « غزونا مع رسول الله حنينا فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية فاستقبلنى رجل من المشركين فأرميه بسهم وتوارى عنى فما دريت ما صنع ، ثم نظرت الى القوم فاذا هم قد طلعوا من ثنيـــة اخرى ، فالتقوا هم وصحابة رسول الله فولى اصحاب رسول الله ، وأرجع منهزما »

وحدث ابو عبد الرحمن الفهرى قال : « كنا مع رسول الله فى حنين فسرنا فى يوم قائظ شديد الحر »

وروى محمد بن اسحاق بسنده : « خرج مالك بن عوف بمن معه الى حنين فسبق رسول الله اليها فأعدوا وتهيأوا فى مضايق الوادى واحنائه واقبل رسول الله واصحابه حتى انحط بهم الوادى فى عماية الصبح ، فلما انحط الناس ثارت فى وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ النـــاس منهزمين لا يقبل احد على احد »

وفى روايات شتى ان كمينا من المشركين فاجأ المسلمين من شعبة فى الوادى وقابلهم بنبـــل كأنه الجراد المنتشر ، « وكانوا رماة . . . لا يكاد يسقط لهم سهم » فأدبرت الخيل وادبر المقاتلة وراءها لا يلوون على شىء

وتلك جملة الأخبار عن بدء المعركة جمعناها من مصادر متعددة وأثبتنا بعضها بحروفها ، ويتبين من المعارضة بينها أن الهزيمة انكشفت من الهجمة الأولى لان الخيل فوجئت فى الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر ، فولت منهزمة

فى جفلة حيوانية معروفة فى اشباه هذه المواقف ، وقديما ذكر الرواة عن حرب الاسكندر وأمراء الهند أن جفلة الفيلة من الحديد المحمى كانت هى سبب الهزيمة التى أصيب بها الهند فانقلبت الفيلة وبالا عليهم وقضت وهى مولية على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم ، تطأ بعضهم وتوقع الآخرين وتدفع من حاول الثبات الى الفرار ، ولم تمض على حنين بضع سنوات حتى لقى الفرس من فيلتهم فى حرب المسلمين مثل هذا المصرع ومثل هذه الجفلة الحيوانية ، يوم تعمدها المسلمون بالضرب فى الأعين والخياشيم

وقد حدث مثل هذا مرة اخرى فى وقعة حنين هذه حين حاول المسلمون أن يكروا بعد الفرار « فصار الرجل يلوى بعيره فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله ويؤم الصوت »

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولحاق المشاة بهم واختلاط الحابل بالنابل بعد ذلك من الفريقين ، وتواتر القول أن الطلقاء الحديثين فى الاسلام أدبروا منهزمين عمدا بعد الهجمة الأولى . فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار

ولقد أوشك أهل مكة أن يستقبلوا الأعراب المتقدمين على رضى من بعضهم لحنينهم الى الدين القديم ، وعلى كره من بعضهم لأنفتهم من غلبة الأعراب على قريش ، لولا أن تغير مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات ، وكان الفضل فى ذلك لحركة جاءت من قبل المسلمين وحركة جاءت من معسكر الأعراب ، وكان مجيئهما فى الموعد المقدور

فأما الحركة التى جاءت من قبل المسلمين فهى بروز النبى عليه السلام بشخصه الكريم الى مقدمة الصفوف . فقد ثبت فى ذلك الهول الجارف ثباتا يجل عن الوصف وأخذ

زمام المعركة كلها فى يديه ليمضى وحده فى القتـــال كيفما تصير الأمور

وكان قد شهد المعركة على بغلتـــه دلدل أو الشهباء ، فانحاز الى اليمين سريعا ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف المتدفعة من مدبرين ومقبلين ، والتفت الى اليمين ونادى : يا معشر الأنصار ! ثم التفت الى اليسار ونادى كذلك يا معشر الأنصار ! فتسامعوا وتجاوبوا وعطفوا ـ كما وصفهم شاهدو الموقف ـ عطفة الابل على أولادها ، واجتمع معهـــم حول رسول الله مئات فى لمحة عين

وتختلف الروايات فى وصف هـــذه الحركة المجيـــدة من مبداها ، فيقول بعضها ان الناس ادبروا يومئذ عن رسول الله حتى بقى وحده ، ويقول بعضها : بل بقى معه نفر قليل منهم ابو بكر وعمر وعلى والعباس والفضل ابنه وابو سفيان ابن الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب بن أبى لهب وعبد الله ابن مسعود وقـــليلون لا يتجاوزون الاثنى عشر . وجعل رسول الله يقول :

أنا النبى لا كذب انا ابن عبد المطلب

ثم أمر عمـــه العبـــاس ان يصرخ فى الجيش : يا معشر الأنصار ! يا أهل السمرة ! يا اصحاب سورة البقرة ! يا بنى الخزرج !. وكان العباس رضى الله عنه جهير الصوت يسمع صوته على مسافات بعيدة ... وقيل انه كان يقف على سلع وينادى غلمانه بالغابة فيسمعونه وبينه وبينهم ثمانية اميال

فلما جلجل صوته بهذا النداء اذا بالأنصار والمهاجرين يتجاوبون : يا لبيك يا لبيك ! ويسرعون الى ناحية الصوت زرافات زرافات ، حتى تجمع منهـــم ثلاثمائة او يزيد فى لحظات ، ثم شاعت بين الالوف المؤلفة قدوة الكر والاقبال بعد الفر والادبار ، فاذا الجيش بقضه وقضيضه يعدو الى

ساحة القتال ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم زمام يديه وقدميه . وهانت النفوس حتى استهدفت النساء للموت غير مباليات ، ومنهن من لم تكن على صحة فى النظر كالعميصاء ام انس بن مالك ، وكانت وهى حامل تحزم وسطها ببرد لها وفى حزامها الخنجر لدفاع من يجترىء عليها

وكان خالد بن الوليد قد ثنى عنان فرسه بعد التوائه فى الهجمة الاولى فلم يزل يقاتل حتى سقط مثقلا بالجراح لا يقوى على السير من مؤخرة رحله ، وهناك وجده النبى عليه السلام حين خرج يتفقد الجرحى بعد المعركة ، فبارك له وواساه

اما الحركة التى جاءت من قبل المشركين فاعانت على هزيمتهم فذاك انهم قد غرتهم طلائع النصر فاقبلوا على الغنائم والاسلاب وشغل الكثيرون منهم بالتقاطها واستلابها عن مطاردة المدبرين . فاتفقت الحركتان فى وقت واحد لتحويل وجهة القتال

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بوادرها التى اجلناها ان الهزيمة فيها بعد الهجمة الاولى كانت ضرورة مادية لا محيد عنها ، وانها ضرورة لم يكن لخالد يد فيها ولا طاقة باتقائها ، لان اسبابها كلها كانت من وراء تدبيره ومشيئته ، وهى كثيرة نجملها ما وسعنا الاجمال

فمنها ان الروح التى غلبت على جيش المسلمين فى أوائل المعركة كانت روح استهانة وقلة اكتراث وان الروح التى غلبت على المشركين يومئذ كانت روح استماتة وعناد مع تقارب العدد بين الجيشين

وربما رجحت كفة المشركين فى الدروع والسلاح لما تقدم من حاجة النبى عليه السلام الى استعارة بعض الدروع والرماح

ومنهـــا أن جيش المسلمين كان فيه كثير من الطلقـــاء ، قد يبلغون الألفين وقد يزيدون ، وكانوا على دخل أو على ضعف يبيتون النية على خذلان النبى . فخذلوه وتبعهم الناس

ومنهـــا أن جيش المشركين سبق المسلمين الى مواقعه فاختار وأحسن الاختيار وهجم فى الوقت الذى ارتضاه

ومنهـــا أن المسلمـــين كانوا يواجهـــون الشمس عنـــد الصباح واليوم قائظ لا تقوى فيـــه العيون على مواجهـــة شعاعهـــا ، فحيـــل بينهم وبين التثبت والاحكام فى مطلع الصباح الى أن استوت الشمس فى السماء

ومنهـــا أن استطلاع المسلمـــين لم يكن على عادته من البراعة والتيقن والاسراع . فقد أبطأ الفارس المستطلع حتى التمسه النبى عليه السلام مرات . ثم جاء ولم يخبر بشىء ، ثم ظهر الكمين المرهوب من حيث لا يرونه فأوقع بالخيـــل وهى لا تحسب له أى حساب ، وهذا مع مهارة المشركين فى الرماية حتى قيل انهم لا يسقط لهم سهم

ومنها ان بنى سليم أصحاب الخيـــل التى تولاها خالد كانوا على قرابة من هوازن ، وعز عليهم ان يلاحقهم المسلمون بعد استدارة المعركة فكانوا يقولون : ارفعوا القتل عن بنى أمكم ! وكانوا مع هذا ضعاف الاسلام فسبقوا الى الردة بعد موت النبى عليه السلام ، وما زالوا فى موضع الظنة بعـــد ذلك على عهد الخلفاء

فتقدير النبى عليه السلام لخالد بن الوليد انما هو التقدير الصحيح لأعمال السرايا والجيـــوش فى مؤتة وبنى جذيمة وحنين ، وكأنما هو تقويم الجوهرى الخبير للجوهر النفيس فى معدنه الخفى غير مصنوع ولا مصقول ، وللتاريخ من بعده تقويم الجوهر بما يضفى عليه من جمال الصوغ والضياء

ونعود هنا فنقول : ان تقدير النبى عليه السلام خالدا ابن الوليد لم يكن تقدير المجاملة لمكانه أو لما يرجى من قومه الأقوياء بنى مخزوم ، فانه عليه السلام لم يجامله فى وصفه الذى طابقته حوادث الأيام ، ولم يجامله حين قدم عليه فى القيادة ثلاثة من السابقين فى الاسلام وترك اختياره بعدهم لاتفاق كلمة المسلمين ، بل لم يجامله حين خاصم عبد الرحمن بن عوف فغضب النبى عليه السلام وقال له معرضا : « يا خالد ! ذر أصحابى . لو كان لك أحد ذهبا فانفقته قيراطا قيراطا فى سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن »

انما هو سيد السادة ومربى الرجال والابطال ، يقوم الأعمال بقيمتها وينزل العظماء فى منازلهم ، ولا يمنعه أداء المجاملة أن يجامل بمقدار على حسب السوابق والأقدار

□

وقد تولى خالد للنبى اعمالا اخرى فى سنوات حجه الثلاث ، ولكن الاعمال التى اخترناها هى اكبر اعماله فى حياته عليه السلام ، وهى أقرب الاعمال الى وزن كفايته وتقويم معدنه وتمييز خلقه ، ولكنه اريد لكل عمل صغير كما اريد لكل عمل كبير ، وكانت للنبى عليه السلام نظرة فى كل مهمة مقدورة ندبه اليها

فمن مهامه الصغيرة تسييره فى ثلاثين فارسا لهدم « العزى » بعد فتح مكة ببضعة أيام ، وهى الصنم الذى كان ابوه يتمسح به وينحر له الابل والغنم ، وكان سدنته من بطون بنى سليم الذين قاتلوا مع خالد فى مقاوم شتى ، وقد كان معبود القبائل التى لقيها المسلمون فى يوم حنين ، واصله ثلاث شجرات بأرض نخلة يزعمون أن ربهم كان

يشتو بها لحر تهامة ويصيف باللات عند الطائف لبردها . . . وظلت مخوفة الى ما بعد الاسلام . فيقول الكلبى « ان اللات والعزى ومناة لكل منها شيطانة تكلمهم وتراءى للسدنة من صنيع ابليس وامره » وهى التى أرجف من أرجف من المشركين أن القرآن الكريم يرتضيها ويساومهم على عبادتها ويجعلون منه قولهم « اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى. تلك الغرانيق العلا . وان شفاعتهن لترضى »

فهى مهمة مخوفة من وجهتها النفسية وان سهلت من الوجهة الحربية ، فخرج خالد حتى انتهى اليها فهدمها ، وجاء فى بعض الاقاويل انه « لما انتهى اليها جرد سيفه فخرجت اليه امراة سوداء عريانة ناشرة شعرها ، فجعل السادن يصيح بها :

« اعزى » اذا لم تقتلى المرء خالدا
فبوئى باثم عاجل او تنصرى

فاخذ خالدا « اقشعرار فى ظهره » وضربها بالسيف فشقها . ثم لقى النبى فقال له : الحمد لله الذى أكرمنا بك وانقذنا بك من الهلكة . لقد كنت أرى ابى ياتى العزى بخير ماله من الابل والغنم فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثا ثم ينصرف الينا مسرورا ، ونظرت الى ما مات عليه ابى والى ذلك الراى الذى كان يعاش فى فضله وكيف خدع حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ». فقال عليه السلام : « ان هذا الامر الى الله فمن يسره للهدى تيسر له ومن يسره للضلالة كان فيها »

وكذلك بلغت العبرة الى خالد قبل ان تبلغ منه الى الناس

□

ومن المهام التى ندب لها فى حياة النبى مهمة يمتزج فيها

الشك بالأمل والرفق بالشدة والترغيب بالترهيب ، لأنها بعثة الى اناس غلابين مجتمعى الرأى أولى عصبية وبأس وحنكة ولهم سمة يخالفون بها سمة العرب فى معظم انحاء الجزيرة وهم بنو الحارث بن كعب بنجران

أرسله اليهم وأمره ان يدعوهم الى الاسلام ثلاثة أيام ، فان استجابوا قبل منهم وان لم يفعلوا فله أن يقاتلهم . فخرج اليهم وبعث الركبان فيهم يبشرون بالدين الجديد ويبصرونهم بفضائله وأحكامه ، فاستجابوا ودخلوا فيما دعوا اليه

وأقبل وفد من عظمائهم على النبى - بأمره عليه السلام - فقال حين رآهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ قيل : يا رسول الله ! هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب . ثم سلموا ونطقوا بالشهادتين فقال لهم عليه السلام : أنتم الذين اذا زجروا استقدموا ؟ واعادها ثلاثا وهم لا يجيبون . فلما أعادها الرابعة قال زعيمهم يزيد بن عبد المدان وفيه شوس وخيلاء : نعم يا رسول الله ! نحن الذين اذا زجروا استقدموا ، وكررها أربعا . فقال النبى : لو أن خالدا لم يكتب لى انكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم . فانطلق ابن عبد المدان يقول : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا . قال : فمن حمدتم ؟ قالوا حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله !

قال : صدقتم . ثم سألهم : بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا متغضبين : لم نكن نطلب أحدا . قال : بلى ! كنتم تغلبون من قاتلكم . فعادوا يقولون : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله انا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحدا بظلم »

قال صدقتم ، وقفلوا الى ديارهم فأرسل اليهم عمرو بن

حزم يفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام وياخذ منهم الصدقات

□

وقد شهد خالد مع النبى عليه السلام غزوتين لم يجر فيهما لقاء واشتباك ، وهما غزوة الطائف وغزوة تبوك

وكانت غزوة الطائف تتمة لوقعة حنين ، لاذت بها القبائل بعد فرارها وامتنعت وراء اسوارها ، وجمعت من الميرة ما يكفيها الى السنة القابلة ، فأحاط المسلمون بالاسوار فرماهم المشركون بالنبل كانه أسراب الطير ، وقتلوا وجرحوا وهم متمكنون فى أسوارهم ، فبرز خالد لهم يدعوهم الى النزال ولا يجيبه أحد . ثم صاح به عبد ياليل عظيم ثقيف : « لا ينزل منا أحد ولكن نقيم فى حصننا فان فيه من الطعام ما يكفينا سنين ، فان اقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا اليك بأسيافنا جميعا حتى نموت عن آخرنا »

فضربهم المسلمون بالمنجنيق وتقدم نفر من الصحابة تحت دبابتين من جلود البقر يفتحون ثغرة فى الحصن . فارسل عليهم المشركون سكك الحديد المحماة فاحرقت الدبابتين وصدتهم عن السور

وأمر عليه السلام بكرومهم ونخيلهم فقطعت وهم يصيحون : دعها لله والرحم ! فقال عليه السلام : ادعها لله والرحم ، واستشار نوفل بن معاوية الديلى فى امرهم فأجابه : « يا رسول الله ! ثعلب فى جحر ان اقمت اخذته وان تركته لم يضرك »

وفى الطريق قسم النبى غنائم حنين قسمة لم ترض اناسا ، فغضب رجل من المنافقين وصاح فى حضرته : هذه قسمة ما اريد بها وجه الله ! فاحمر وجهه عليه السلام

غضبا وقال له : ويحك من يعدل اذا لم أعدل ؟. ووثب خالد وعمر يستأذنانه فى ضرب عنقه فأبى وقال : « لا . لعله أن يكون يصلى . فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ؟ فعاد النبى يقول : انى لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أن أشق عن بطونهم ... »

أما غزوة تبوك فقد خرج لها النبى عليه السلام الى حدود الروم سنة تسع للهجرة فى أعظم جيش شهده المسلمون فى حياته . ومن ثم أمر خالدا ان يذهب الى دومة الجندل ليأتيه بالأكيدر أميرها ، لأنه كان فى وسط الطريق بين الحجاز والعراق والشام عينا للروم وحربا للقوافل يدين للقسطنطينية بالعقيدة وبالطاعة . ومن خبرة النبى عليه السلام بالقبائل وأحوالها والأمراء وعاداتهم أنه قال لخالد : ستجده يصيد البقر ! فكان كما قال

وقد ذهب خالد الى الدومة فى اربعمائة وعشرين فارسا فاقتحم الحصن واضطر من فيه الى التسليم ومنهم الأمير . وجاء به الى المدينة فصالحه النبى على الجزية وعاهده على الأمان

▭

وثم بعثة من غير هذا الباب ندب لها خالد ولم يندب لمثلها قط فى عهد النبى ولا عهود خلفائه ، وتلك بعثته الى بنى مراد وزبيد ومذحج باليمن يدعوهم الى الكتاب ويعلمهم شريعته وأحكامه

قيل انه مكث فيهم اشهرا يدعوهم فلا يجيبونه ، وانه عليه السلام بعث بعده على بن أبى طالب وأمره أن يقفل خالدا ومن معه فان أراد أحد ان يعقب معه تركه

ولا غرابة عندنا فى هذا الذى حدث ــ ان كان قد حدث

على الوجـــه الذى ذكره الرواة ـ فان خالدا لم يسمع من القرآن ولا من فقه الدين كما سمع الصحابة ممن عاشروا النبى سنين بعد سنين ، وانما هى سنوات قلائل لم يفرغ فيها الا بضعة اشهر من الغزوات والبعوث . وقد أم الناس بالحيرة ـ فى خلافة الصديق ـ فقرأ من سور شتى ، ثم سلم والتفت الى الناس معتذرا يقول : شغلنى الجهاد عن كثير من قراءة القرآن !

ويجوز ان النبى ارسله فى هـــذه البعثـــة ليدربه على الدعوة وليفرغ بعض وقته للمدارسة والمذاكرة بهداية من معه من فقهاء الصحابة ، ويجوز أنه عليه السلام تعمد أن يرصده للبطل المشهور عمرو بن معديكرب ـ فارس زبيد ـ ندا له يكف من غربه ويلزمه التدبر فى عاقبة نكثه وانتقاضه

وفى تواريخ البعثة اضطراب قد يشكك القارىء فى بعض وقائعها واغراضها فيجوز أيضا ان البعثـــة وفقت بعض التوفيق أو كل التوفيق ، وان الرواة قد فاتهـــم فى هـــذا الصدد شىء كثير أو قليل من التحقيق

لكنها كائنا ما كان مصيرها ومصير عشر من أمثالهـــا لو ندب الى عشر من أمثالها ـ لتسقطن من سيرة خالد ويبقين له ما هو حسبه من البطولة وصدق البلاء . وليكونن بها او بغيرها خطيبا يبين من منبر التاريخ ، وان لم يحمله قط منبر التعليم

حروب الردة

لتفصيل الكلام فى حروب الردة مكان غير هذا المكان
لاننا نتناول منها فى هذا الكتاب ما يتصل بأعمـال خالد
وتقديم خصائصـه ومزاياه . وندع ما عدا ذلك لمـكانه من
الشروح والمطولات

وقد رجعت حروب الردة ـ كجميع الثورات والأحداث
الاجتماعية ـ الى أسباب مختلفة ولم تنحصر فى سبب واحد،
وربما كان من أسبابها ما خفى على المؤرخين ولا يزال خافيا
علينا حتى الآن ، ولكننا نعتقد ان الأسباب الآتية كافيـة
لتفسيرها وتفسير نصيب خالد منها،على القدر اللازم لفهمها
وتصحيح دلالتها

فمن أسباب حرب الردة تمرد القبائل القوية على قريش.
واقواها القبائل التى تنتمى الى ربيعة دون مضر. فانها كانت
تتعصب لنسبها وتأنف أن تعلوها قريش بفضـل النبـوة
والرئاسة ، وصرح بذلك طليحة النمرى حين لقى مسيلمة
زعيم بنى حنيفة ومدعى النبوة فى اليمامة فقال : أشهد انك
كذاب ... لكن كذاب ربيعة أحب الينـا من كذاب مضر .
وكان مسيلمة هـذا يقول : انه أراد أن يأخـذ نصف الأرض
ويترك نصفها لقريش « ولكن قريشا قوم لا يعدلون ! »

ولم تكن المنافسـة بين قبائل مضر اخف ولا اضعف من
المنافسة بين مضر وربيعة ، فان المنافسة فى الأقربين أشد
وايقظ من المنافسة بين الأبعدين كما هو المعهود فى كل قبيل.
فكانت ذبيان وعبس وبنو أسد تكره من سيادة القرشـيين
ما تكرهه القبائل البعيدة . وروى عن عيينة بن حصن مثلما
روى عن طليحة النمرى اذ قال يؤيد المتنبىء طليحة بن خويلد :

«نبى من الحليفين أحب الينـــا من نبى من قريش» ويعنى بالحليفين بنى أسد وبنى غطفان

وكانت قريش تقـــابل مثل هـــذه النفرة بمثلها فى ايام خصومتها للنبى وثورتها عليه . فكان صفوان بن امية مشركا فى وقعة حنين ، ولكنه أنكر من أخيه أن يفرح بنصر هوازن وحلفائها ، وصاح به وهزيمة المسلمين على أشدها : «أسكت فضالله فاك ! أتبشرنى بظهور الاعراب ! والله لأن يربنى رجل من قريش أحب الى من أن يربنى رجل من هوازن »

ومن أسباب الردة ثورة البادية على الحاضرة . فما زال من داب البادية فى كل زمان أن تنقم على الحاضرة سلطانهـــا ونعمتها ، ولم يشذ عن هذه السنة الا بضع قبائل فيما بين مكة والمدينة كانت تخشى من سطوة القبائل الكبرى ما ليست تخشاه من سطوة المدينتين ، وكانت تحتكم فى خصوماتها الى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة اخرى ، فتؤثر مودة الجوار بعد طول الخبرة وطول العشرة على بلاء الفتنة فيمـــا بينها اذا زال سلطان مكة والمدينة ، ولزم بعض هذه القبائل الحيدة يترقب ما يكون ، وأسرع بعضهـــا الى تلبية الدعوة فحارب فى صفوف المسلمين

ومن أسباب الردة نجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة ، فان هذا النجاح اطمع بعض القادة من رؤساء العشائر فى بلوغ مثل هذا المطلب الجليل

فما هو الا أن استقر الأمر لمحمد فى الحجاز وما حوله حتى اشرابت الأعناق للاقتداء به وظن من ظن انهم قادرون على ما قدر عليه وان المسألة كلها مسألة كهانة وأسجاع وقيـــادة واتباع ، وقصرت عقولهم عن ادراك سر القوة الأصيلة التي هيأت لمحمد كل ذلك التوفيق العظيم ، وهى أن دعوته مطلوبة لاصلاح الاخلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشة فى العـــالم كله وليست مجرد نهزة تنتهز لظهور رئيس مطاع وتحقيق

مجد موموق . فنجم الدعاة فى حيـــاة النبى باليمن ونجد والبحرين لمجاراة الدعوة بالحجاز،وجاءت وفاته عليه السلام اثر ذلك فجراتهم على المجاهرة بالعصيان

ومن الاســـباب التى اثارت القبائل فريضة الزكاة التى فرضها الاسلام على كل مستطيع،فانها اثارتهم لضنهم بالمال وانفتهم من الاتاوة ، وخالفت ما الفوه حتى من اكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، لانهم كانوا ياخذون من هؤلاء اكثر ممـــا يعطون ، وكانت الاتاوات التى يرضخون عنها اقل من المنـــح التى توزع عليهم بين حين وحين ، باسم الخلع او الهبات

بل كان منهم من ضاق ذرعا بالفرائض فاســقطها الدعاة عنهم جميعا واعفوهم من كل فريضة ، ومنهم من انف من السجود فقال لهم طليحة الاسدى : « ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ، فاذكروا الله قياما ، فان الرغوة فوق الصريح ! »

ويلحق بهذا واشباهه ان الدين الجديد لم ترسخ جذوره بعد فى نفوس الاقصين من اعراب البادية ، ولم تهجر طباعهم بعد عادات الجاهلية فى العبادة والمعيشة ، وقد كان المسلمون اعلم بهم من ان يدهمهم داهم بالمفــاجاة من قبلهم ، لانهم عرفوا طويتهم قبل ذلك من القرآن الكريم : « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم »

وليس اقرب الى المالوف من نكوص هؤلاء على اعقابهم بعد موت النبى وشـــيوع الفتنة والاضــطراب عن ايمانهم وشمائلهم ، مع اغراء الدعاة وفرط الحنين الى القديم وهــو منهم جد قريب

وثمة سبب لا يغفل ولو لم تذكره التواريخ بالسند القاطع

والنص الصريح : وهوالدسيسة المبثوثة من الدول الأجنبية : كل منها بما يوائمها وبما هى قادرة عليه

وهذا يفسر لنا أن النبوة ظهرت من العرب أولياء فارس ولم تظهر من العرب اوليـاء الروم ، وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبـائل التخوم السورية ، فهـؤلاء يدينون بالمسيحية فلم يظهر بينهم مدع او مدعية للنبوة ، ولكنهم ناوشوا المسلمين على التخـوم مناوشة الحرب والوقيعة . أما التغلبيون على مقربة من فارس فلم يكن عليهم حرج من دولتهم التى تحميهم ان يحاربوا دين العرب الجديد بدين آخر ، ولم يجدوا حرجا من عقيدتهم ان يسمعوا الى المتنبئين والمتنبئات ، لأن عقيدتهم هذه كانت مزيجا من المجوسيـة والوثنية ومسحـة من المسيحيـة لا يرضاها اتباع كتاب . فلهذا ظهرت بينهم سجاح وسلكت فى التبشير بدينها العجيب مسلكا لا يستريح العقل الى تفسيره بغير تفسير واحد ، وهو انها كانت تعمل لغرض سياسى وباغراء دولة اجنبية ، ولا تعمل لغرض دينى ولا بدافع من عندها وعند ذويها

فسجاح هذه كانت من بنى يربوع اقرب بطون بنى تميم الى نفوذ فارس ، ثم تزوجت فى اخوالها التغلبيين بالعراق ، ثم انحدرت من ثم الى ارض بنى تميم مبشرة بدين جديد بعد موت النبى عليه السلام ، وانحدر معها جيش كثيف لا يستهان بأمره ، فلما دعت قومها الاولين بنى يربوع الى هذا الدين طلبوا اليها ـ على ما يظهر ـ ان تؤلف بطون بنى تميم جميعـا الى دينها قبل الزحف على الحجاز لمحـاربة المسـلمين . فلم يتفق بنو تميم على راى . وتركتهـم الى اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب يتحفز كذلك للخروج على الاسلام ، ولم يكن أوفق لهما بهذه المثابة من التعاهد عـلى غرض واحد وهو الزحف على الحجاز ، ولـكنها رجعت الى قومها وهى تقول : « انها وجدته على الحق فتزوجته » وانه

سيؤدى لها نصف غلات اليمامة وقد استنجزته شطر هذا النصف قبل مرجعها الى بلادها

فلماذا خالفهـا بنو تميم ؟ ولمـاذا خالفها مسيلمة ؟ ولماذا انحدرت ثم عادت أن كان همها التبشير بدين جديد ؟ ولماذا هابها مسيلمة واعطاها الجزية وهو يأنف أن يعطيها خليفـة المسلمين ويجرد لحربه جيشا قيل ان عدته أربعون الفا وقيل بل ستون ولن يقل عن عشرين الفا فى تقدير أحد من المؤرخين؟

كل أولئك لغز سخيف لا يقبله العقل الا على وجه واحد ، وهو انها كانت داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة ، ومن ثم أصابت ما أصابت من الاخفاق او النجاح

ويعزز ذلك انها لقيت فى رحلتها عملاء فارس جميعا من أبناء البوادى العراقية والنجدية ، وانهـــا عملت حيث كان الاكاسرة حريصين على تجديد نفوذهم القديم

قال ابن الكلبى : «كانت غير كسرى تبذرق ـ أى تحرس ـ من المدائن حتى تدفع الى النعمان بن المنذر بالحيرة ، والنعمان يبذرقها بخفراء من بنى ربيعة حتى تدفع الى هوذة بن على الحنفي باليمامة ، فيبذرقها حتى يخرجهـا من أرض بنى حنيفة ، وتجعل لهم جعالة ، فتسير بها الى ان تبلغ اليمن »

وعلى هذا تكون مهمة سجاح قد وضحت على هذه الصورة التى لا لغز فيها ولا تناقض بين أجزائها

ويكون بنو تميم وبنو حنيفة وغيرهم قد عاملوها المعاملة الواجبة لمن يعتز بصولة الاكاسرة ويخلف المناذرة فى وقت واحد

فقد هدمت وقعة ذى قار ـ التي مر ذكرها بأول هـــذا الكتاب ـ هيبة الاكاسرة في الجزيرة العربية

وساء ظن الاكاسرة بالمناذرة ـ ملوك الحيرة ـ الذين كانوا صنائع فارس وكانت فارس تعول عليهم فى اخضاع البـادية

القريبة والبعيدة ، فنكلوا بهم وعصفوا بدولتهم قبيل ذلك بقليل . فأرسل الاكاسرة أميرة تغلبية لتخلف المناذرة فى هذه المهمة القديمة

وكان اختيـــارها من بني تغلب أدنى شيء الى المعقـول والمنظور ، لانهم أعداء بني بكر الذين تصدوا لحرب الفرس وهزموهم فى وقعة ذى قار

ثم كان تردد بنى تميم وبنى حنيفة فى معاملتها أدنى شيء كذلك الى المعقول والمنظور ، لانهم أصدقاء المناذرة من زمن قديم ، فلا هم راضون بهوانهم ولا هم قادرون على اغضاب فارس . وغاية ما فى وسعهم أن يصرفوا سجاح راضيـــة ويقنعوها بأن الثورة على الاسلام حاصلة ، ويكون عملهم جميعا معقولا على هذا التفسير حيث يعوزه الفهم والوضوح على كل تفسير سواه

بل نحن نخطر هذا فى أخلادنا فنفهم كيف اشتد التغلبيون فى حرب المسلمين وكيف اشتد المسلمون فى حرب التغلبيين يوم اشتبكت جيوش الاسلام وجيوش الاكاسرة على اثر حروب الردة ، فهى شدة لها أوائلها ونهاية جاءت بعـــد بداية . وكانت رحلة سجاح الى الجزيرة العربية هى أولى الطلائع فى حرب الاكاسرة والاسلام

▭

من جملة هذه الأسباب يجوز لنا ان نقول : ان المدينـة ومكة وجيرتهما كانت تقف وحدها فى وجه البادية العربية بأسرها ، ومن وراء البـــادية دول كبيرة تنصرها ولا تنصر المدينتين فى هذه المعركة

وقد كانت حروب الردة طائفا من الشر لا شك فيه

ولكنها ولا ريب لم تكن شرا محضا خلوا من جانب المصلحة

والفائدة ، لأن هـذه الحرب وحدت عناصر المدينتين وهما وشيكتان أن تفترقا كل مفترق ، فاجتمعت منهمـا قوة تكافىء كل قوة فى البادية على انفراد ، وتيسر لهما من ثم أن تأخذا من البادية قوة تفل قوى الدول الواقفة لهما بمرصد قريب

ولولا حروب الردة لكان الخلاف بين المهاجرين والانصار خليقا أن يتشعب ويستفحل ، وكان الانصار فيمـا بينهم مختلفين شيعتين كبيرتين ثم شيعا صغارا فى كل من الشيعتين، وكذلك كان المهاجرون من هاشميين وامويين ومن سائر بطون قريش ، فان بنى هاشم على انفرادهم لم يجتمعوا بينهم الى كلمة ، ولم يكن لهم مطمع فى الوفاق بينهم وبين بطون قريش الاخرى ، ودع عنك الوفاق بين طوائف المسلمين اجمعين

فلما توفزت البادية للوثوب على المدينة احس المسلمون جميعا أنهم فريق واحد ، مهدد بخطر واحد ، فاتفقوا بوحى البداهة التى لا موضع فيهـا لتعمل التفكير وحيلة الحض والتحريض ، ولبثوا متفقين ما كانوا بحاجة الى الوفاق وما كان الشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الاخطار

وغنى عن القول أن خالد بن الوليد كان فى وسط هـذه الحومة بكل داع من دواعيـه النفسية والعقليـة . بداعى العقيدة الاسلامية ، وداعى العصبية القرشية ، وداعى النشأة الحضرية ، وداعى القيادة العسكرية ، التى قدمته الى طليعة المجاهدين فى هذا الميدان

فشهد حروب الردة من اوائلها الى نهاياتها ، وقسمت له الحصة الكبرى فى أهم وقائعها واعصب أوقاتها ، ومنها وقعة واحدة ترجح بهاجميعا وتعد من حروب الاسلام الحاسمة فى صدر تاريخه ، وهى وقعة اليمامة التى انتصر فيها بعد هزيمة قائدين

وتنقسم أعمال خالد فى حروب الردة الى قسمين : احدهما

الذى اشترك فيه مع كبار الصحابة بقيادة الخليفة فى المدينة وما جاورها ، والآخر الذى استقل به أو استقل على الأصح بناحيته العسكرية ، وهو اعظم عمليه فى هذه الحروب

توفى النبى عليه السلام وجيش اسامة بن زيد فى الجرف من ارباض المدينة ، والفتنة على مقربة منها تتطلع برؤوسها. فعاد فريق منه الى المدينة وأشار بعض الصحابة على الخليفة أن يرجىء مسيرته ويستبقيه عنده فترة من الزمن ريثما يطمئن فى عقر داره خلال تلك الغاشية . فأبى أشد الاباء أن يخلف وصية للنبى أوصى بها فى مرض وفاته ، وقال قولته المأثورة : « والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش اسامة » ونادى فى المسلمين : ليتم بعث أسامة ! ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة الا خرج الى عسكره بالجرف

وسار الجيش الى وجهته كما أراد

فخلت المدينة من الجند الا بضع مئات من رجال المهاجرين والانصار . ودرى أقرب المرتدين اليها بحالها من العزلة وقلة الحامية فزحفوا عليها وظنوا أنهم اذا هددوها وهى عزلاء وتوسلوا بالمفاوضة والوساطة فى الوقت نفسه رجع الخليفة عن عناده وقبل منهم ما ساوموه عليه ، وهو اقامة الفرائض كلها والاعفاء من الزكاة ... أو من الجزية كما سموها !

زحفت مئات من عبس وذبيان وفزارة على المدينة، وتركوا شطرا من جموعهم فى الربذة حيث تلتقى طرق كثيرة على مسافة سبعين او ثمانين ميلا من المدينة ، وساروا بالشطر الآخر الى ذى حسا وذى القصة وهى اقرب محطة اليها .

ثم اوفدوا سفراءهم ينزلون بالنـــاس فى بيوتهم ويتوسلون بهم الى الخليفة ان يقبل منهم ما عرضوا عليه . فأبى اباءه الذى لا ينثنى وقال : لو منعونى عناقا لجاهدتهم عليه

فقفلت الوفود الى جماعاتها ، وعلم الخليفة بقفولها،واخذ فى التاهب للأمر بحزم العمل وحزم التدبير والحيلة بعد حزم الايمان . فلم يدع شيئا قط يستعد به للخطـر المنتظر الا أعده فى اوانه ، وعلى الوجه الأمثل فى تلك الاحوال

فاقام كبار الصحابة على الابواب ، وجمع فى المسجد من استطاع جمعه من المجاهدين ، وارسل العيون على الطرقات من كل سبيل ، فما هو الا ان جاءوه بنبأ القـوم ومواضع جماعاتهم المختلفة حتى خرج مع الليل ليضربهم من حيث لا يتوقعون قدومه ، ودهم من كان منهم بذى القصة فذعروا لهذه البغتة التى لم تكن لهم على بال ، ولاذوا بالفرار حتى لحقوا بأصحابهم فىذى حسا فصمدوا هناك للمقاومة ، وقيل انهم تحيلوا على ابل المسلمين التى لم تروض للقتال فضربوها بالانحاء المنفوخة فى وجوهها فنفرت وولت مجفلة من حيث أتت . فأطمعهم ذلك فى الهجوم على المدينة ، وظنوا أن اهلها لن يفارقوها يومهم على الاقل بعد هذه الهزيمة

الا ان الخليفة لم ينتظرهم معتصما بالمدينة كما انتظروا . بل خرج بمن معه فى هزيع من الليل على تعبئة كاملة ، وهبط عليهم عند طلوع الصبح وهم على غير اهبة فلم يلبثوا قليلا حتى تفرقوا وارتدوا ، ولم تقم لهم بعدها قائمة فى هـــذه المحاولة الفاشلة . لأن جيش أسامة عاد من وجهته قبل ان يسعفهم مدد نافع ، فيئسوا أن يأخذوا المدينة عنوة أو على غرة بعد ما اعياهم اخـــذها وهى قليلة الحاميـــة مفتوحة الطريق

تلك كانت هجمة المرتدين الاولى على معقل الاسلام . ظفر فيها المسلمون لأنهم اعتصموا بحزم الايمـــان وحزم التدبير

وحزم الوفاق ، وانخذل فيها المرتدون لأنهم كانوا على نصيب ضئيل من هذه العدد الثلاث ، فخانتهم عزيمة الدين وعزيمة الراى وعزيمة الكلمة الواحدة ، ولعلهم لو شاءوا أن يتحدوا كلمة وفعلا لفاتهم طلاب ذلك ، لقلة الكلأ والماء الذى يكفيهم مجتمعين . فكان تفرقهم مما أعان المسلمين عليهم ، وعوضهم من قلة الجند رجحانا يقابلون به الكثرة وهى منحلة الوثاق

ومن عجائب الخليفة الصديق انه كان يعتصم بالايمان حتى يقال لم يدع مزيدا للحيلة والتدبير، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال لم يدع مزيدا للايمان

ففى هذه الفترة التى شغل فيها أولئك المرتدين بالهجوم والدفاع كانت رسله الى كل مكان تستنفر القبائل الموالية للنجدة ، وتمشى بالوقيعة والتفرقة بين القبائل المعادية أو المتربصة للعداء ، وتأتيه بالأخبار من كل صوب فيعمل وهو بصير ، ويعملون وهم متخبطون مضللون

فلم تنقض هجمة فزارة وعبس وذبيان حتى استتم له جيش كبير من ابناء القبائل الموالية فى جوار المدينة ومكة ، ومعهم جيش اسامة وعدته بضعة آلاف من المدربين على القتال

ومضى رسوله « عدى بن حاتم الطائى » الى قومه بنى طيىء وهم يترددون : فريق يعصى الخليفة ويلحق بالمتنبىء الأسدى طليحة بن خويلد ومعهم فلول المرتدين عن المدينة ، وفريق يحجم عن العصيان ويؤثر البقاء والانتظار. فأرهبهم من مغبة العصيان وساعده على ارهابهم مصير عبس وذبيان. وانذرهم ليهبطن عليهم جيش لا قبل لهم بدفعه من تلك الأمداد التى تتدفق على المدينة او يثوبوا الى الاسلام وايتاء الزكاة . فاصغوا اليه ، وسألوه المهلة حتى يستخرجوا من لحق بطليحة من اخوانهم لئلا يقتلهم وهم بين يديه ، ووعدوه أن يدخلوا بهم جميعا فى زمرة جيش المسلمين

الى هنا انتهت المرحلة الاولى التى اشترك فيها المسلمون جميعا بقيادة الخليفة لمدافعة المرتدين عن المدينة. وكان شأن خالد فيها شأن غيره من ابطال المجاهدين

وآن أن تبدأ المرحلة الثانية وهى المرحلة التى توزع فيها الاعمال بين القادة فى شتى الميادين ، بعد أن تمت العدة وتوافدت الأمداد من مختلف القبائل ، واستراح جيش أسامة ، وهدأت سورة القيظ وبدأ الخريف ، وأصبح من الميسور للخليفة أن يوجه البعوث الى المتنبئين فى مواطنهم، ليعجل كل منهم عن مراده قبل استفحال خطبه

ففى أول هذه المرحلة نرى خالدا « بذى القصة » حيث عقد له الخليفة لواء القيادة على جيش لا تتجاوز عدته أربعة آلاف مقاتل ، أكثرهم من أبناء القبائل الموالية وأقلهم من المهاجرين والانصار • ووجهته الى « بزاخة » من أرض بنى أسد حيث اجتمع بنو أسد وقيس وحلفاؤهم الى المتنبىء القائم بأمر الردة هناك طليحة بن خويلد

وربما كان الصحيح أن خالدا انما استقل فى أول هذه المرحلة بعمل القائد العسكرى فى تنفيذ خطة مرسومة بتفصيلاتها • اذ كانت هذه الخطة متفقا عليها بينه وبين الخليفة ، وكان الخليفة اليقظان يأمره بما يصطنع خطوة بعد خطوة ، وينبهه الى مواقف القبائل ومواطن الخطر منها على درجاته ، ويصحبه الى بداية طريقه

قال الخليفة وهو يودع الجيش : «أيها الناس ! سيروا على اسم الله وبركته ، فأميركم خالد بن الوليد الى أن ألقاكم • فانى خارج فيمن معى الى ناحية خيبر حتى ألاقيكم »

ثم خلا بخالد وأسر اليه أمرا ثم قال : « ... عليك بتقوى الله وايثاره على سواه ، والجهاد فى سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك ، فان معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل السابقة من المهاجرين والأنصار فشاورهم

فيما نزل بك ثم لا تخالفهم • فاذا دخلت أرض العـدو فكن بعيـــدا من الحملة فانى لا آمن عليك الجولة ، واســـتظهر بالزاد وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة،واحرص على الموت توهب لك الحيـــاة ، ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منـــه ، واحترس من البيات فان فى العرب غرة ، وأقلل من الكلام واقبل من الناس علانيتهم وكلهم الى الله فى سريرتهم ، واذا أتيت دارا فأقحم • فان سمعت أذانا أو رأيت مصليا أمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة ، فان لم تسمع أذانا ولم تر مصليا شن الغارة ، فاقتل وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس ••• واذا لقيت أسـدا وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتـالهم ، فانه بلغنى أنهم رجعـوا بأسرهم ، فان كفاك الله الضاحية فامض الى أهل اليمامة • سر على بركة الله ! »

ولم يكن الخليفة على نية المسـير الى خيبر كما أعلن أمام الناس ، ولكنه لم يشأ أن يعلن سير الجيش الى بزاخة نصا لمقاصد متعددة : منها أن يخيف بطون طيىء حين يقصد اليهم جيش خالد بقضه وقضيضه فيجهز على بقيـة التردد التى تهجس فى صدورهم ، ومنها أن يقنع طليحة بارسـال من عنده من طيىء لنجدة اخوانهم والدفاع عن بلادهم ، ومنها أن يدهم طليحة على غرة وهو يظن أن الجيش متجه الى غير بزاخة ومنصرف عنها الى حين ، ومنها أن يلزم أهل خيبر أماكنهم فلا يشتركوا فى قتال

وقد عمل خالد بهـــذه الخطة فمضى فى طريق بزاخة ثم عرج آلى اليسار قبل منتصف الطريق كأنه يريد الحملة على ديار طيىء ، وهنـــاك وافاه فوق الألف من مقاتلة البطون

الطائية ممن تخلى عن طليحة أو كان على نية اللحاق به بعد قليل

وقبل أن يستوى خالد فى طريقه الى بزاخة جاءه أناس من الطائيين فعرضوا عليه أن يكفوه حرب قيس ويعفيهم من حرب بنى أسد لأنهم حلفاؤهم منذ الجاهلية • ولم يكن عدى إبن حاتم على رأى قومه فقال لخالد : لو ترك هـذا الدين أسرتى الأدنى فالأدنى من قومى لجاهدتهم عليه ، أفأنا أمتنع عن جهاد بنى أسد لحلفهم ؟ فلم يشأ خالد أن يكره أناسا على حرب من يسالمونهم ولا يستحمسون فى قتالهم ، وقال لعدى : لا تخالف قومك ، وامض بهم الى القوم الذين هم لقتالهم أنشط ، والله ما قيس بأوهن الشوكتين • امضوا الى أى القبيلتين أحببتم »

وأتم تعبئته للقتال وهو على الطريق ، فجعل القبائل على ميمنته والأنصار والمهاجرين على ميسرته ، وصمد هو فى القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء

أما طليحة فالظاهر أنه كان أحذر من أن يؤخذ على غرة ، فانه قد رصد العيون على فجاج الصحراء فعلم بمقدم المسلمين قبل وصولهم الى بزاخة ، وأعد العدة لكلتا الحالتين من غلبة وفرار، فعزل أكثر النساء فى مكان أمين لئلا يقعن فى السبى اذا دارت الدائرة عليه ، وأقام حوله أربعين فارسا من أشد فتيان بنى أسد ليدرأوا الهجمة عنه ، كأنه كان يعلم أسلوب خالد فى قتاله ••• إذ كان وكده قبل كل وكد أن ينحى بالضربة المصمية على رئيس القوم فيفت فى أعضاد القوم جميعا بقتله أو اكراهه على الفرار • ولم يكن طليحة جبانا يتنحى عن الطعن والضرب وراء غيره ، بل كان مشهورا بالشجاعة معروفا عنه أنه أقسم لا يدعوه أحد الى مبارزة الا أجابه ، ولكنه كان على شجاعته أميل الى الحذر والحيطة منه الى المجازفة والحماسة ، وكان فى هـذه الخصلة نقيض نده

الذى يصاوله وينازله بالسلاح والاخلاق ، فكان خالد أقرب الى المجازفة والحماسة منه الى الحذر والحيطة

ولقد كانت لجيش طليحة مزيتان هما الكثرة والراحة • فقد كان جيشه يربى على جيش المسلمين بألف مقاتل أو زيادة ، مع وفرة السلاح والركائب ، وكان مستريحا فى دياره على خلاف جيش المسلمين الذى كان عليه أن يلقاه بعد مسير مئات من الأميال فى الأودية والجبال

ولهذا أوشك أن يفوز بيومه لولا عزمة من عزمات القيادة التى تأتى فى ابانها وتدور برحى الحرب من طرف الى طرف فى ساعات معدودات

فلما التحم الجيشان ثبت طليحة وأصحابه ثبات المستميت، وكروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا الميمنة ولحقت بها الميسرة ، وانقضت هنيهة خيل فيها الى المسلمين أنهم منكسرون لا محالة ، وجاء بعض بنى طيىء الى خالد ينصح له أن يتراجع يومه ليعتصم بجبال طيىء ويستدرج المرتدين اليها • فأنكر عليه نصيحته وزجره قائلا : لا أعتصم بغير الله!

ثم عول على الكرة فى كبة الجمع ليبلغ النصر أو يموت دونه • فأرسل فرسه وترجل مقاتلا على قدميه ليملك الحركة حيث يشاء ويبعث القدوة فى قلوب صحبه، ونادى بالانصار كأنه ذكر موقف النبى يوم حنين : يا أنصار الله ! فلبوه مندفعين اليه ، وثاب أبناء القبائل الى مواضعهم فاستحر القتل فى الفريقين حتى قتل حرس طليحة جميعا واستقر هو فى « دثار الكهانة » يوهمهم أنه يتلقى الوحى أو ينتظر المدد من السماء

وقد كان أتباعه يحبون أن يؤمنوا به مجاملة له ومرضاة لكبرياء القبيلة فى أنفسهم ، فلما جد الجد أحبوا أن يروا لهذا الايمان علامة وسأله زعيم فزارة عيينة بن حصن وهو من أعز أنصاره وألد أعداء المسلمين : هل جاءك جبريل ؟

قال : لا • ثم رجع له مستعجلا وحى السماء صائحا به وقد نسى فى غضبه أنه يخاطب على زعمه نبيا من الانبياء : لا أبالك ! أجاءك صاحبك ؟ قال : لا • فصاح به : حق متى؟ قد والله بلغ منا • فلما عاوده الثالثة خجل أن يجيبه جوابه الأول وقال له نعم ! جاءنى وأوحى الى « ان لك رحى كرحاه، وحديثا لا ننساه » ••• فسخر منه عيينة وقال نعم ! هو حديث لا ننساه ••• ونادى فى قومه وهو مؤمن بهزيمة طليحة وادبار أمره : انصرفوا يا بنى فزارة ! انه لكذاب • وجعل طليحة يسألهم من حيرته : ما يهزمكم؟ فأجابه أحدهم: أنا أحدثك ما يهزمنا ، انه ليس رجل منا الا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وانا لنلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه »

وادرك طليحة حذره • وكان قد أعد لهذا الحذر عدته ! فركب فرسه وأردف امرأته النوار وراءه ، ونجا بها وهو ينادى أتباعه : « من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل » • وما زال فى فراره حتى لحق بالشام

▭

وتعقب خالدفلول المرتدين ومن مالأهم من قبائل هوازن وسليم حتى لحق بهم فى « ظفر » حيث أحاطوا بسلمى أم زمل وهى كأمها من قبلها مضرب المثل فى العزة والمنعة • كان يقال عن أمها « أعز من أم قرفة » لأنها تعلق فى بيتها خمسين سيفا كل سيف منها لرجل من ذويها ، وقد سبيت هى فى عهد النبى عليه السلام فأعتقتها السيدة عائشةرضى الله عنها • فذهبت الى قومها مغضبة لتلك العزة التى انتهى بها عناد قومها الى الأسر والخدمة ، واستثارتحمية الرجال بهذه الغضبة التى تثير الطبيعة البدوية ولو لم تجتمع اليها

بواعث أخرى للغضب والثورة·فدار بين خالد وجيشها أحر قتال ، ووقفت هى على جمل مشهور تضرم النخوة فى قلوب جندها وترد الشجاعة الى من أدبر للفرار،ومضى اليوم وهى تكافح ومن حولها زعماء جيشها يكافحون · فجعل خالدمائة من الابل لمن يصيب الجمل · وأرسل نخبة من فرسانه عليه فعقروه ، وقيل انهم لم يصلوا اليه حتى قتل من دونه مائة رجل من حماتها المستيئسين

وقد تفرقت سرايا خالد فى أثر المنهزمين تضربهم وتجمع الأسلاب والغنائم وتدعو الى الاسلام

فلم تمض أيام حتى كان قد فرغ من مهمتيه الأوليين : وهما الانذار والتغلب على الفتنة ، وبقيت مهمته الاخيرةوهى القصاص والتأديب ، ولعلهاكانت ألزم وأحزم من قمعالفتنة وتمزيق الجيوش · لأن المرتدين كانوا قد أسرفوا فى التنكيل بالمسلمين الذين أصابوهم بينهم ولم يتورعوا عن مثلة من المثلات التى يتورع عنها المقاتل الكريم ، وأصابوا أولئك العزل المنفردين فى غير ساحة حرب وبغير نذير من قتال · فكانت أوامر الخليفة الى خالد صريحة ألا ينى فى عقاب المعتدين « ولا يظفرن بأحد قتل المسلمين الا قتله ونكل به غيره »

ولم يكن خالد فى مواقف الصرامة والبطش بحاجة الى توكيد وتشديد·فلم يقبل من المرتدين الا أن يأتوه «بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على المسلمين » · ومثل بهم فأحرقهم بالنيران ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال كفعلهم بأولئكالأبرياء الغافلين عن عدوانهم الذميم·وقاد رؤساءهم فى جوامع الحديد الى الخليفة ليصنع بهم ما يشاء

وذلك درس لا شك أنه عنيف مخيف ، ولكن لا شك أنه عادل فى شرعة الحرب والسلم ، وأنه لازم كل اللزوم فى أحوال كتلك الاحوال

وأية كانت المثلات بالمرتدين فهى على التحقيق لا تتجاوز المثلات التى تؤمر بها « حملات التأديب » فى عصرنا هـذا لمعاقبة أناس لم يقترفوا مثل ما اقترفه المرتدون ولم يقرنوا فعالهم بجريرة الخروج على عقيدة أو شريعة ولا بتهـــديد «الدولة» فى كيانها وهى أحوج ما تكون الى الأمان والضمان

ومع هذا وجد من كبار المسلمين من لام خالدا على الامعان فى تأديبه على النحو الذى نحـــاه • فقال عمر بن الخطاب للخليفة منكرا احراق الناس : بعثت رجلا يعذب بعذاب الله؟ انزعه !

فلم يستمع اليه الخليفة لأنه كان فى حنقه على المرتدين لا يستعظم عليهم ضربا من ضروب العقاب

ومهما يكن من مجاراة هذا العقاب لطبع خالد ــ فهـــذه البعثة بين بعثاته جميعا هى بعثـــة التنفيـذ المحض الذى لا يشوبه نصيب من الاستقلال ، اللهم الا اســتقلال القائد الكفؤ بحسن القيام على ما وكل اليه

ومما لا غنى عنه قبل الانتقال الى أعمـــال خالد المستقلة فى بقية حياته أن نتحرى نصيبها من الاقدام على العمل غير مأمور به ولا محمود عليه

فيجوز لقائل فى هذا الصدد أن يقول ان الخليفة لم يرسم لخالد خطة القتال والمداورة فى بعثة بزاخة وانما أفضى خالد بهذه الخطة الى الخليفة فأقرها ووافقه عليها

ذلك جائز غير ضعيف الجواز ، ولكننا على هذا نرجح أن الخليفة هو صاحب الخطة من ألفها الى يائهـــا ، وأن نصيب خالد فيها هو نصيب الاقرار والموافقة ، ويميل بنا الى هذا الترجيح أن نصائح الخليفة فى بدء البعثة قد شملت الصغائر والكبائر وتناولت تفصيل الحركة كما تناولت تفصيل البيان الصحيح عن مواقف المرتدين فى كل قبيلة وكل ميـــدان ، وأن الخطة قامت على التـــورية والسبق بالهجوم ، وكلاهما

مما تعلمه الخليفة الأول بعد طول الصحبة من النبي عليه السلام • اذ كان مأثورا عنه أنه كان اذا قصد وجهة ورى بغيرها ، وأنه كان لا ينتظر الهجوم بل يسبق الهاجمين اليه، وقد جرى الخليفة على ذلك فى دفاعه عن المدينة قبل مسير البعوث وعقد الألوية للقواد

كذلك تواترت بعض الاقوال بمسير خالد الى بنى تميم ـ بعد معركة البزاخة ـ قبل أن يأتيه أمر الخليفة بالهجوم • قيل أن الأنصار أنكروا عليه المسير الى بنى تميم وقالوا له : « ما هذا بعهد الخليفة الينا ، انما عهده ان نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب الينا » فقال لهم خالد : « ان يكن عهد اليكم هذا فقد عهد الى أن أمضى • وأنا الأمير والى تنتهى الاخبار ، ولو أنه لم يأتنى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة ان أعلمته بها فاتتنى لم أعلمه حتى انتهزها »

بل قيل أكثر من ذلك أنه أغار على اليمامة قبل أن يأتيه الأمر من الخليفة بالاغارة عليها • وهى أهول حروب الردة بل لعلها أهول من معظم حروب الفرس والروم

فزعم قوم أنه قال لصاحبه بالبطاح : والله لا أنتهى حتى أناطح مسيلمة • فأبى الأنصار وقالوا : هذا رأى لم يأمرك به أبو بكر فارجع الى المدينة•فأصر على رأيه وقال : لا والله! حتى أناطح مسيلمة • فرجعت الأنصار فسارت ليلة ثم قالوا : والله لئن نصر أصحابنا لقد ندمنا ، ولئن هزموا لقد خذلناهم • فرجعوا اليه ومضى بهم الى اليمامة

والذى لا نزاع فيه أن الخليفة لم يبعث أحدا غير خالد الى بنى تميم ، ولو بعث غيره لصح أن يقال انه سار اليهم غير مأمور ، ولكنه قال عند مسير جيشه من ذى القصة : « اذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح ان أقام له »

أما اليمامة فقد بعث اليها الخليفة عكرمة بن أبى جهل ثم

رأى حاجته الى المدد فوجـه فى أثره شرحبيل بن حسنة ، وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفردا بالهجمة على اليمامة ، ثم بدا لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده فهجم على مسيلمة قبل أن يوافيه المدد فنكب نكبة شديدة • وتلقى الخليفة نبأ هـذه النكبة فكتب الى شرحبيل يأمره بالتوقف حتى يأتيه أمره ، ولم يقل أحد أن الخليفة وجه قائدا غير خالد لنجدة شرحبيل، ولا كان معقولا أن يكتفى بشرحبيل بعد هزيمة عكرمة وقد كان كلاهما عنده فى حاجة الى التعزيز والامداد

وقد تقدم أن الخليفة قد بصر خالدا بشأن اليمامة قبـل خروجه الى البزاخة•••وليس من داع الى الشك فى نسبة ذلك المقال اليه ، ولا الى الشك بعد هذا جميعه فى توليـة خالد قيادة الجيش الذى سار الى اليمامة

ومن المتواتر جدا أن خالدا لقى الخليفة بعد مسيره الى بنى تميم وقبل مسيره الى بنى حنيفة • لأنه استدعى لسؤاله عن مقتل مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ليلى • فهو قد توجه الى اليمامة ماذونا مأمورا بعد وقعةالبزاخة وبعد وقعة بنى تميم • وعدا هذا كله يكاد يستحيل على العقل أن يقبل أن خالدا قد تولى حربا كحرب اليمامة اشـترك فيها أعظم الصحابة واستهدف المقاتلون فيها لأكبر الاهوال دون أن يندب لذلك بأمر صريح

وغاية ما نفهمه الآن من ورود ذكر اليمامة عنـد عقد الألوية فى ذى القصـة أن الخليفة عرف خطرها فأراد أن يجمع لها أكبر قوة من جيوشـه المختلفة ، وأراد فى الوقت نفسه أن يشغل بنى حنيفة بأنفسهم فوجه اليهم عكرمة أولا ثم وجه شرحبيل بعده ليتلاقيـا معا ، ويكون خالد قد فرغ فى خلال ذلك من أمر بنى أسد فيدرك سابقيه معززا لهم ان تعذر عليهم أن يقهروا بنى حنيفة قبل قدومه ، وهى خطة تلائم ما عرف عن خطط الصديق من جرأة وحيطة وسرعة ،

ولا يمنع هذا أن الخليفة أمر خالدا أن يرجـــع اليه بعد كل مرحلة من مراحل هذه البعثـــة لعله قد استجد شيئا فى غيابه

وفحوى الاقوال الكثيرة التى تتفق بالبداهة على هـــذا النسق أن خالدا قد تولى التنفيـذ فى ترتيب أعماله وتولاه أيضا فى أوائل خططه ، ولكنه قد وكل الى نفسه فى الامور التى يعلمها الشاهد ولا يعلمها الغائب • ومنها موعد المسير وطريقة الهجوم واللقاء•فقام بما وكل اليه جميعا عى أكمل الوجوه وأقمنها بموافقة الخليفة ، الا فى موضعين لكل منهما ارتباط بمسألة زواج : وأحـدهما فى البطاح والآخر فى اليمامة • فقد تعرض فيهما لمؤاخذة الخليفة ومؤاخذة كبار الصحابة ، ولم يرض فيهما عرف الجاهلية أو عرف الاسلام

وظاهر من مقال الخليفة فى ذى القصـــة أنه لم يكن على يقين من عداء بنى تميم ، أو من ضرورة القتال فى أرضهم ، وانماكان يعلق الأمر على موقفهم عند وصول جيش المسلمين اليهم • وبخاصة بعد وفود زعماء منهم باعلان الطاعة وايتاء الزكاة

وليس أدل من هذا على أن الصديق رضى الله عنه قد كان يعمل عمله فى حروب الردة جميعا وهو على استطلاع وثيق وعلم واف بأحوال كل طائفة من المرتدين ، وأن من دواعى انتصاره وفاء أخباره بحاجات القتال ونقص أخبار المسلمين عند القبائل المرتدة بعيدها وقريبها على السواء

فتقديره لموقف بنى أسد منذ البداءة كان أصح تقدير

وكذلك كان تقديره لموقف بنى حنيفة فى اليمامة

ومثل هذين فى صحة الالمام بالاحوال المختلفة شكه فى ضرورة القتال بالبطاح ؛ وتعليقه القتال مع مالك بن نويرة

على شرط ، وتخصيصه مالكا بالذكر دون الآخـــرين من زعماء بيوت بنى تميم

فالواقع فى أمر بنى تميم كما نعلمه اليوم أنهم لم ينطووا على خطر جسام وان اختلفت فى نياتهم الظنون

وتاريخهم قبل الاسلام بعشرات الســنين يؤكد هـــذه الحقيقة ، ويوحى الى الخليفة رأيه الذى ارتآه

كانوا فى أجهل أيام الجاهلية فى طليعة العـــرب كثرة ومنعة وسعة بلاء ووفرة ماء ومرعى

وكانوا يجترئون على المغامرات التى تفرق منها القبائل الاخرى ، فبطشوا مرة بقافلة عظيمة من قوافل الفرس التى تسير فى رعاية الدولة الفارسية وحراســـة أناس من بنى حنيفة • وفارس دولة ضخمة يهابها العرب ، وبنو حنيفة قوم من المنعة والعزة بمكان • فلما استشار كسرى بعض زعماء بنى حنيفة فى عقوبتهم قال له : ان أرضهم لا تطيقها أساورتك وهم يمتنعون بها ، ولكن احبس عنهم الميرة ،فاذا فعلت بهم ذلك سنة أرسلت معى جندا من أساورتك ،فأقيم لهم السوق ، فانهم يأتونها • فتصيبهم عند ذلك خيلك

وكذلك لم يتمكن منهم كسرى حتى منع عنهم حاجياتهم من أرض الحضارة فى سنة مجدبة • واســتعان عليهم بمن يستدرجهم الى مكان ينالون فيه

ولكن بنى تميم على هذا كانوا مثلا من الامثلة النادرة على عجائب الحظوظ فى هــذه الدنيا ، فقلما ظهر للمعتبرين أن الكثرة والسعة والمنعة والوفرة تنقلب أحيانا الى نقمة تشبه القلة والضنك والخوف كما ظهر ذلك فى شأن بنى تميم

فقد كانت كثرتهم وسعة بلادهم واكتفاء كل بلد منهــا بمراعيه وأمواهه سببا لتفرقهم وتصدع وحدتهم وتعـــذر الاجماع بينهم على رئيس واحد

فتشعبوا بطونا يدين كل بطن منها لرئيس ، بل بيوتا فى البطن الواحد يبلغ من تنافسهم أن يتحاربوا ويتوارثوا الترات،ويصبح التوفيق بينهم أعسر من التوفيق بينأحدهم والغريب الطارىء عليهم من الاعداء والاصدقاء

وكان هـــذا شأنهم يوم ظهرت الدعوة المحمدية • فلما بلغتهم خاف كل منهم أن يرفضها فيكون منافسوه الواقفون له بالمرصاد حربا عليه • فأجاب رؤساؤهمالدعوة ، وأقرهم النبى على رآستهم ، ومنهم الزبرقان بن بدر على الرباب ، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون ، ووكيع بن مالك على بنى حنظلة ، ومالك بن نويرة على بنى يربوع وهم بيت من بيوت بنى حنظلة الكبار

وكل أولئك رجال من ذوى الرأى الراجح والقول النافذ والمناقب « الشخصية » ••• ويمتـــاز من بينهم مالك بن نويرة بمزايا أخرى لم تتفق لواحـــد منهم ، وهى اللباقة والظرف والفصاحة وحسن المحاضرة،مع الوسامةوالصباحة وأناقة الزى والشارة ، وهى فى جملتها تلك الصفات التى ترشح صاحبها لمآسى البطولة فى قصص الحياة ، من واقع أو خيال

كانت فيه خيلاء وجفلة ، وكان متلافا لا يبقى على مال ، وكان فارسا شاعرا محدثا ظريف المدخل على من يعرفومن لا يعرف ، ومن ذاك أنه كان يقصد الحى من أحياء الأعداء وله فيه أسرى يريد فكاكهم بالفـــدية المصطلح عليها ، فلا يحدثأهل الحى هنيهة حتى يخلبهم بحديثه ويأسرهمبظرفه وحسن سمته فيردوا اليه أسيره بغير فدية ، ويفترقوا وهم أصفياء

وكان مالك هذا أول من قصدت اليه سجاح المتنبئة عند منحدرها من الجزيرة•فصرفها عنه بلباقته الى ملاقاة البطون الاخرى من بنى تميم•ولعله زين لها أن تجمعهم اليها عصبة

واحدة ، لعلمه باستعصاء ذلك عليها وعلى غيرها ... وانها وشيكة أن تنتقم له منهم ان هى دعتهم الى الالتفاف بها فلم يجيبوها

ولم تزل الأنباء ـ قبل مقدم سجاح وبعد منصرفها ـ يتابع بعضها بعضا بانكسار المرتدين وغلبة المسلمين عليهم الا ما كان من هزيمة عكرمة فى اليمامة وانتصار بنى حنيفة عليه ، وهو انتصار لا يسر بنى تميم لشدة المنافسة بينهم وبين بنى حنيفة

فلما أخذ الخليفة فى عقد الألوية وتسيير البعوث كان بنو تميم على حالهم المعهود من التفرق والمراقبة بعضهم لبعض على توجس وحذر ، فسبق بعضهم الى المدينة بحصته من الزكاة ، وتأخر بعضهم حتى نزل خالد بأرضهم فدفعوها اليه ، وتحير مالك بن النويرة فلم يعزم على الحرب ولم يؤد الزكاة

وأغلب الظن أنه بدد ما جمع من الصدقات فى هباته وملاهيه ، ثم ليم فى ذلك فأجاب لائميه بأبيات قال فيها :

وقلت خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجىء من الغد
فان قام بالأمر المخوف قائم منعنا وقلنا الدين دين محمد

يعنى أن محمدا هو صاحب الدين وصاحب الزكاة ، وقد مضى محمد فليس لأحد بعده أن يتقاضاه !

وهو على الجملة موقف رجل مسرف « لا يبالى ما يجىء به الغد » كما قال . وليس بموقف عناد وتحفز لقتال

فلما نزل خالد بالبطاح لم يجد أمامه أحدا يلقاه بزكاة أو يلقاه بقتال . فعسكر حيث نزل وأرسل السرايا فى أثر أهل البطاح . فجاءته بمالك بن نويرة فى نفر من بنى يربوع . فحبسهم ثم أمر بقتلهم ، وحدث بعد ذلك أنه تزوج بامرأة مالك ليلى أم تميم ، وكانت من أشهر نساء العرب

بالجمال ، ولاسيما جمال العينين والساقين • يقال انه لم ير أجمل من عينيها ولا ساقيها

وتضطرب الروايات هنا أبعد اضطراب وأصعبه أن تهتدى منه الى مخرج متفق عليه

فمن قائل ان السرايا وجدت بنى يربوع يصلون وسمعت الأذان ، ومن قائل : لم نر صلاة ولم نسمع بأذان

ومن قائل ان الأسرى قتلوا لان الليلة كانت باردة ونادى مناد من قبل خالد أن « دافئوا أسراكم » ففهم الحراس أنه يريد القتل لانهم من بنى كنانة والمدافأة بلهجتهم كناية عنه

ومن قائل أن مالكا قتل بعد محادثة حامية جرت بينه وبين خالد

ثم تضطرب الروايات فى نقل حديثهما فلا يدرى له نص صحيح • فقيل ان مالكا صرح بأنه لا يعطى الزكاة وانما يقيم الصلاة • فقال خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معا لا تقبل واحدة دون الاخرى ؟ فقال مالك : قد كان صاحبك يقول ذلك • فاتخذ خالد قوله دليلا على تبرئه من النبى وقال له : أو ما تراه لك صاحبا ••• ثم حمى الجدل بينهما حتى أمر بقتله ••• ونسجت الخرافة بعد ذلك نسيجها الذى لا يتماسك لوهيه • فزعموا أن خالدا أمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرا فأكل منه• وان شعر مالك جعلت النار تعمل فيه الى أن نضج اللحم ولم يفرغ الشعر !! وهى خرافة تروى لتدلنا على شىء وأحد • وهو وجود المحنقين الراغبين فى التشهير بخالد وتبشيع أعماله وايغار الصدور عليه

وقيل : ان مالكا لمح فى عينى خالد الاعجاب بامرأته فصاح به : هذه التى قتلتنى• فقال له خالد : بل الله قتلك برجوعك عن الاسلام

ويذهب بعضهم الى أكثر من هذا فيزعمون أن هوى خالد لها سابق لحرب الردة ، وفى ذلك يقول أبو نمير السعدى :
قضى خالد بغيا عليه بعرسه وكان له فيها هوى قبل ذلك

وقيل ان خالدا توعد مالكا بالقتل فقال له مالك : أوبذلك أمرك صـــاحبك ؟ قالد خالد : وهــذه بعد تلك ؟ ثم تكلم أبو قتادة الأنصارى وعبد الله بن عمر فى أمره فكره خالد كلامهما • وعاد مالك يقول له : يا خالد ! ابعثنا الى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا • فقال خالد : لا أقالنى الله ان أقلتك • وتقـــدم الى ضرار بن الأزور أن يضرب عنقه • ويزيدون على ذلك أن خالدا دعا أبا قتادة الأنصارى وعبد الله بن عمر الى حضور عقد الزواج بليلى بعد مقتل زوجها • فأبيا وأشارا عليه أن يكتب الى أبى بكر ، فلم يستمع اليهما

وغضب أبو قتادة فأقسم لا يجمعه بعد اليوم وخالدا لواء واحـــد ، وقفل الى المدينة غير مستأذن من قائده ، فلقى الخليفة ولقى عمر بن الخطـاب ، فكانت غضبة عمر أشـــد وأعنف • وطلب الى الخليفة أن يعزله وأن يقيده قائلا : ان سيفه فيه رهق • فلم يجبه الخليفة وقال له : يا عمر ! تأول فأخطأ • ارفع لسانك عن خالد • فانى لا أشيم سيفا سله الله على الكافرين

ولكنه ودى مالكا واستدعى خالدا اليــه • فلما قدم الى المدينة رأى عمر منه ما زاده غضبا وشــدة فى طلب القود منه : رآه قد دخل المسجد وعليه قباء وقد غرز فى عمامته اسهما • فنهض اليه فنزعها وحطمها وصاح به : «قتلت امرءا مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك »

فتركه خالد ولقى الخليفة فاعتذر اليــه • فعنفه الخليفة وأمره أن يفارق ليلى ثم عفا عنه واستبقى خدمتــه • فعاد خالد الى المسجد وفيه عمر ••• فبادره حين رآه مناجزا :

هلم الى يا ابن أم شملة ..! فعرف عمر أن الخليفة قد عفى عنه . فلم يكلمه ودخل بيته

وحسبنا من هذه الاقوال جميعا أن نقف منها على الثابت الذى لا نزاع فيه

□

والثابت الذى لا نزاع فيه أن وجوب القتل لم يكن صريحا قاطعا فى أمر مالك بن نويرة ، وان مالكا كان أحق بارساله الى الخليفة من زعماء فزارة وغيرهم الذين أرسلهم خالد بعد وقعـــة البزاخة ، وان خالدا تزوج امرأة مالك وتعلق بها وأخذها معه الى اليمامة بعد لقاء الخليفة

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت هذا كله أن نقول: ان وقعة البطاح صفحة فى تاريخ خالد كان خيرا له وأجمل لو أنها حذفت ولم تكتب على قول من جميع تلك الاقوال ، لانها لم تضف الى فخاره العسكرى كثيرا ولا قليلا ،وأهدفته للام ، أحمد ما يحمد منه أن له عذرا فيه ، يقبله أناس ولا يقبله آخرون

يجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق الذى لا يعلو على ميزانه ميزان فى ترجيح الرجال والاعمال

ولأن الرجل الذى يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق ان يكتب له تاريخ . اذ معنى الخشية عليه من أخطائه أنه فقير فى الحسنات والعظائم ، وأنه من الفقر فى هذا الجانب بحيث تعصف الأخطاء بعظائمه وحسناته . ولم يكن خالد بن الوليـــد كذلك . بل كانت له فى ميزان العظمة والعبقرية كفة راجحة . ولم يكد يرحل عن البطاح حتى اتصلت له حلقات من كبار الأعمال توزع على عشرة رجال ويجد كل منهم فى نصيبه كفايته من الفضل والرجحان

خرج من البطاح الى اليمامة

خرج من وقعة لا خطر لها الى وقعة لها الخطر الاكبر فى حروب الردة وفى حروب الاسلام كافة خلال ايام الخلفـاء الراشدين

ويرجع هذا الخطر الى قوة بنى حنيفة أصحاب اليمامة ، ودهاء رئيسهم مسيلمة بن تمامة ، ومنعة بلادهم بالجبال والاودية ووفرة الماء والثمرات

هابها أصحاب سجاح وقالوا لها حين حدثتهم بغزوها : ان مسيلمة قد استفحل أمره وعظم . فلم تهون عليهـم خطبها حتى استنزلت لهم سجعات من وحيها المزعوم تقول فيها : « عليكم باليمامة . دفوا دفيف الحمامة ، فانها غزوة صرامة ، ولا تلحقكم بعدها ملامة »

وكان مسيلمة هذا رجلا قصيرا أخنس الأنف أفطسه شديد الصفرة زرى الهيئة ، ولكنه على ما يؤخذ من أخباره كان على ذكاء مفرط وحيلة نافذة ، وكان من أولئك الدهاة الذين يعوضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء ، فاشتهر بالخلابة والقدرة على استهواء النفوس من الرجال والنساء ، فمن خلابته أن النبى عليه السلام أرسل اليه رجلا من قراء القرآن ليعلم أهل اليمامة أحكام الاسلام ويبصرهم بالفرائض والعبادات وهو نهار الرحال . فما لبث الخبيث أن استغواه حتى شهد له أنه يوحى اليه وأنه سمع النبى عليه السلام يقول انه قد أشركه معه وشهد له بالنبوة ! وقد استغوى سجاح ـ وهى تدعى النبوة ـ حتى شهدت بنبوته وتزوجته وانصرفت من بلاده بنصيب من الهدايا يقنعها بالذهاب ولا يضمن لها التكرار . وكأنه كان على حظوة عند النساء وخبرة بأهوائهن وأساليب مرضاتهن . فقـد كان نساؤه يحببنه ويجزعن عليه ، وصاحت احداهن ساعة أن قتله وحشى بن

حرب مولى جبير بن مطعم : « وا أمير الوضاءة ! قتله العبد الأسود ... »

وخليق بهذا أن يظن به السحر وتنتظر منه الخوارق بين الجهلاء . لأنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مأتاه . فيخيل اليهم انه سر من الغيب أو معونة من الجنة والشياطين ، وهو على هذا كان يعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة والألاعيب التى كان يحذقها بعض الكهان فى بلاد العرب والعجم ، فكان قبل ادعائه النبوة يطوف بالأسواق ويتعلم « النيرنجيات » حيث سمع بأساتذتها المبرزين فيها . ولم يكن فى طبيعته بمعزل عن طبائع السحرة وادعياء الغيب . فقد قيل فى وصفه وهو يتكهن « انه اذا اعتراه شيطانه ازبد حتى يخرج الزبد من شدقيه » ... والأغلب الأرجح أن به صرعا كأولئك الذين يشبهونه فى الخلائق والدعاوى ، ومنهم الذين يعالجون « الاستهواء » من المستهوين أو الوسطاء

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ووثقوا به واطاعوه . فتأتى له ان يجمع منهم أربعين ألفا أو ستين . وهو عدد ربما ارتفعت به المبالغة او الجهل بالتقدير ، ولكنه لا يهبط الى ما دون العشرين قياسا على ما وصفت به معركة اليمامة من الهول وكثرة القتلى والجرحى بين الفريقين

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمور كثيرة يوم تصدى لدعوة النبوة ومقاومة الاسلام . فكان يقاتل تمامة ابن أثال ، ويناوش بنى تميم لما بينهم من الذحول والمنافسات ، ويتوقى شر سجاح وقومها التغلبيين ودولة الأكاسرة من وراء التغلبيين ، ويعلم أن اشياعه من بيوت بنى تميم قد يخذلونه ، وأن الذين دانوا بالاسلام بين قومه عيون عليه ، وأن الخليفة لا يمهله ولا يجهل اخباره . فتحيل على مهادنة خصومه ، وفرغ جهده لحرب المسلمين وحدهم ، وحشد كل ما وسعه من جند وسلاح ، ثم تقدم بهم فى

عجلة الى موقع يقال له عقرباء فى طرف بلاده على مقربة من بلاد بنى تميم

ولم يكن خالد يجهل خطر الرجل الذى سيلقاه ، ولم يكن يخفى عليه أن الحرب فى العراء غير الحرب فى بلاد تكتنفها الجبال وتقام فيها الأبنية والأسوار ، فتوجه الى اليمامة فى أهبة كافية بالقياس الى أهبة المسلمين لأعدائهم فى صدر الاسلام

ولا يعلم على التحقيق عدد الجيش الذى كان معه فى عقرباء ، ولكنه على التقريب يجاوز الثمانية الآلاف ولا يقل عنها . لأن جيشه بالبزاخة نحو خمسة آلاف ، يضاف اليهم جيش شرحبيل بن حسنة الذى سبقه ولبث فى انتظاره ، ولا يقل عن ألفين ، ويضاف اليهم الردء الذى أرسله الصديق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ليحمى ساقتهم ، وغير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بنى تميم وبنى حنيفة ، فهم فى جملتهم يجاوزون الثمانية الآلاف ولا ينقصون عنها ، ان نقصوا ، الا بقليل

لكن مكان القوة من هذا الجيش الصغير انما هو كثرة الصناديد من أبطال الصحابة المشهورين فيه . فقد كان جيش المسلمين لا يجاوز فى عدته نصف جيش اليمامة ، ولكنه كان فى عدة وافية من أفذاذ الرجال الذين يقومون بالألوف ، فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كفوّان متناظران

وكانا كفوّين متناظرين فى صدق النية واتقاء العار من الهزيمة : هذا تأخذه غيرة الحرم وهذا تأخذه غيرة الدين . وقد قال ابن مسيلمة لقومه وهم يتقدمون الى المسلمين : « هذا يوم الغيرة . اليوم ان هزمتم تستنكح النساء سبيات وينكحن غير حظيات . فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم »

فليست تعوز الخصمين حرارة الخصومة ولا شواحذ الغيرة ولا صلابة العزم ولا توسم الأمل فى النجاح

▭

ولم يزل خالد يتقدم الى وجهته على تعبئة كاملة كعادته فى معظم غزواته ، وكان يتلقى الأخبار عن مسيلمة وحركاته فى كل مرحلة من مراحل الطريق . ولعله استعظم القوة التى حشدها مسيلمة فى عقر داره فجنح الى الأخذ بالأحوط وكتب الى الخليفة فى طلب المدد عسى أن يحتاج اليه بعد الجولة الأولى من جولات القتال ، فأمده الخليفة بجرير بن عبد الله البجلى . ولكنه التحم بجيوش مسيلمة قبل أن يصل اليه ، فلقيه منصرفا من اليمامة

ولما دنا من أرض مسيلمة مرت مقدمة جيشه فى الليل بكوكبة من الفرسان بين الأربعين والستين . عليهم مجاعة بن مرارة من زعماء بنى حنيفة وأصحاب الرأى والمنزلة فيهم ، وكأنه كان خارجا لاستطلاع امر المسلمين ، ولكنه أنكر ذلك وزعم أنه ذاهب لأخذ ثأر له فى بنى تميم وبنى عامر » . فلما سئلوا عن دينهم قالوا : منا نبى ومنكم نبى ! فأمر خالد بضرب أعناقهم جميعا واستبقى مجاعة عسى أن ينتفع بمنزلته فى قومه أو بعلمه بالحرب والمكيدة كما قال لبعض الرواة

ونزل خالد على كثيب فى مواجهة مسيلمة . ثم التحم الفريقان « وقاتلت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله » واندفعت فى هجمتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكر وفيها امرأته أم تميم ومجاعة بن مرارة مقيد بالأغلال . فهم بعض الحنفيين بقتلها لولا أن حماها منهم مجاعة وأوصاهم بها خيرا وهو يقول : نعمت الحرة هذه . وعليكم بالرجال

شوهد فى كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم فى

الصدر الأول أن الكرة الأولى غالبا ما تكون للمشركين ، ولا سيما حين تجتمع لهم مزية العدد والراحة حيث يختارون مكان القتال ، وهي مشاهدة لا تستغرب ولا تخالف المعهود . لأن « الدفعة الحيوانية » أبدا لها الوثبة الاولى مع العدد الكبير وراحة الجسد . وانما الثبات للعقيدة التى يلوذ بها الانسان بعد المراجعة ، وللضمير الذي يثوب اليه المرء بعد الامتحان . وليس من شأن العقيدة أن تكون ــ كالدفعة الحيوانية ــ وثبة عاجلة وهجمة سوارة فاشلة . وانما شأنها أن تحاسب النفس وتستعيد قواها وتستخرج ذخيرتها من أعماقها . فهي لهذا تنفع صاحبها فى المحنة وبعد تبين الشدة . وبخاصة حين يحتاج اليها بعد الجولة الاولى

وهذا الذي حدث فى عقرباء كما حدث فى وقائع شتى

فبعد الجولة الأولى التى فازت بها « الدفعة الحيوانية » برزت العقيدة الى الطليعة وجاءت بمعجزاتها ، وهى معجزات لا يتخيل العقل ان نفسا انسانية تقدم عليها بغير اعتقاد

انكشف الأعراب أولا فى أول صدمة ، وتزلزلت أقدام اناس من الأنصار والمهاجرين من طغيان الجموع الهازمة والمنهزمة على السواء

فبادر خالد الى تنظيم جيشه على وضع جديد . فميز المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب كل بني أب على راية . وصاح بهم : أيها الناس : تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى

ثم عول على الموت كما وصاه أبو بكر فوهبت له الحياة ووهب النصر : حمل على القوم حتى تجاوز الصفوف وجعل يخاطب مسيلمة ويعرض عليه النصف والرجوع الى الحق

ومسيلمة يروغ منه. ثم نادى بشعار المسلمين: «يا محمداه!» ودعا الى البراز وهو يصول ذات اليمين وذات الشمال ولا من يثبت له فى مجال. ولم يبال أن ينظر الى ما وراءه لأنه ترك كل شيء فى تلك الساعة الا أن يتقدم امامه. ولم يزد على أن قال لجيرته أو من نسميهم اليوم أركان حربه «لا أوتين من خلفى» ومضى الى تقدم بغير رجوع، الا رجوع ظافر مختار

وظهرت فى مقام الهول فضيلة الصناديد من كبار الصحابة. فحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الارض الى ساقيه وهو يحمل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتا حتى قتل فى مكانه

وصاح زيد بن الخطاب: «ايها الناس عضوا على اضراسكم واضربوا فى عدوكم وامضوا قدما» ثم أقسم: «والله لا اتكلم حتى يهزمهم الله أو القى الله فأكلمه بحجتى» فكانت آخر ما فاه به فى ذلك اليوم

وحمى البراء بن مالك واخذته العرواء التى كانت تأخذه حين تتعالى الوغى ويحتدم القتال. فكان كأنما يبحث عن الموت ويهرب من الحياة

وتجاوبت الساحة باصوات الأبطال يوصون بعضهم بعضا وينظر بعضهم الى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون بينهم: يا أصحاب سورة البقرة! يا انصار الله! كما ناداهم النبى عليه السلام فى يوم حنين. فاستحى كل منادى منظور المكان منهم فى ذلك المشهد العظيم أن ينكص على عقبيه، ولم ير منهم الا قتيل فى موضعه أو زاحف الى الأمام

وما هى الا سويعات حتى انكشف أصحاب مسيلمة منكسرين، وهرول مسيلمة نفسه الى حديقة مسورة من ورائه. وقد سميت فى ذلك اليوم بحديقة الموت لكثرة من قتل فى طريقها وكثرة من قتل فيها. ولاحت من البراء

نظرة الى جانب الباب ، فاذا هم قد اوشكوا ان يغلقوه عليهم. فصاح باخوانه : « يا معشر المسلمين ! القونى عليهم من فوق سورها » فاحتملوه فوق الجحف ورفعوها بالرماح حتى بلغت أعلى السور فسقط منه على القوم بعد تردد ، ولم يزل يعالج باب الحديقة حتى فتحه ، وقد تواثب افراد من المسلمين الى جانبه فأعانوه

وقتل فى هذه الهجمة مسيلمة كما قتل محكم بن الطفيل اكبر أعوانه ومشيريه ، فاضطرب بنو حنيفة ووقعوا فى الحيرة ، وهم فى هزيمة لايشار فيها برأى ولا يصغى فيها الى مشير . فشغلوا عن باب الحديقة واعين المسلمون على اقتحامه من داخلها وخارجها . فحق لتلك الحديقة فى ذلك اليوم أن تسمى حديقة الموت ، لانها اشتملت فى يومها على الوف من القتلى ، وبلغ عدد القتلى جميعا فى ذلك اليوم بين ساحة القتال وحديقة الموت عشرات الألوف ، أقلهم فى تقدير المقدرين عشرة آلاف من بنى حنيفة وستمائة من المسلمين ، واكثرهم فى تقدير المقدرين يرتفعون الى سبعين الفا أو ثمانين الفا حنفيين والفين مسلمين . وهو رقم لا يدل على نبأ صحيح ولكنه يدل على هول صحيح سرى فى الآفاق من انباء تلك المعركة التى ذهبت فيها نخبة من اجل الصحابة وأفقه الفقهاء ، ومن جراء مقتلهم فى هذه المعركة أمر الخلفاء بجمع القرآن فى المصحف بعد أن فنى الكثيرون من حافظيه ، وخيف أن يفنى آخرون

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبى ، وعزم على غزو حصونها جميعا ولم يكن بقى فيها الا النساء والصبيان والشيوخ والكبار ، فاقترح عليه مجاعة ان يذهب اليهم لينزلهم صلحا عن معاقلهم . ثم خدعه وأخلص لقومه ، لأنه أمر النساء والكبار ان يلبسوا الحديد ويبرزوا من رؤوس الحصون ، فنظر خالد

فاذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس . فآثر المصالحة لما رأى بالمسلمين من الجهد « وقد كلوا من كثرة الحروب » واشترط ان يسلموا وان يكون له نصف السبى والغنائم ، ثم نزل من النصف الى الربع حين اوهمه مجاعة ان القوم قد رفضوا ما قبل منه

فلما اطمأن المعتصمون الى الحصون من بنى حنيفة فتحوا ابوابها فلم ير فيها الا امرأة أو صبى أو شيخ فان أو رجل هزيل لا يرجى لقتال

وقد يتوقع من خالد ان يغضب على مجاعة ويبطش به بطشة خالدية بعد هذه الخدعة التى اجترأ عليه بها علانية وهو فى قبضة يديه

لكننا فى الحق لا نعجب اذا هو لم يغضب . لان عمل مجاعة لا مراء عمل نبيل يكبره فى النفوس النبيلة ويبعث له فيها الاعجاب الذى يكفكف من شرة كل غضب سريع . فهوعمل ينضح بالمروءة والغيرة على العشيرة ، وكلتاهمـا فضيلة يعرفها خالد ويعرف للمتصف بها قدره فلا يذله ولا يجزيه شر الجزاء

وقصارى ما بلغ من غضبه انه نظر اليـه نظرة شزراء وصرخ به : « ويحك ! خدعتنى » فلم يجبن مجاعة ولم يعتذر، وانما قال : « هم قومى ! »

وما نحسب الا أن الاعجاب بمجاعة قد حبب الى خالد أن يصهر اليه ويوثق الصلة بينـه وبينـه : زعيم شجاع جميـل الرأى حسن التـدبير غيور على قومه عليم كما وصفوه بمكيـدة الحرب والسلم . فهو خير صهر فى تلك القبيلة التى يفخـر « سيف الله » بدخولهـا على يديه فى الاسلام ، ويطيب له أن يعزز صـلة الدين بصـلة البيت والنسب . وقد طاب له المقام بتلك البقاع المخصبة التى يزينها له النصر كما يزينها له طيب الهواء . فاختار له واديا

من اوديتهـا الجميلة يسمى الوبر ليقيم فيـه حتى يؤمر بوجهة أخرى ، وخطب الى مجاعة فتاة له موصوفة بجمالها ، وهى خطبة لا ترفض ولكنها قد تقبل وتؤجل لأن مجاعة قد علم من « ليلى » مذ كان سجينا فى خيمتها كيف تلقى الخليفة واصحابه زواجها بخالد فى ساحة القتال . فاشفق هـذا الرجل المحنك البصير بالعواقب من عاقبة تسوءه وتسوء ابنته وتسوء خالدا فى جريرته . فاستمهله ولم يعجل بتلبية طلبه ، وقال له : « مهلا ! انك قاطع ظهرى وظهرك معى عند صاحبك » ... ولكنه لم يلبث أن علم اصرار خالد حتى اجابه ورأى أن عاقبة القبول أسلم من عاقبة الاباء

وكان خالد قد تلقى من الخليفة امرا باستئصال كل من يحمل السلاح من بنى حنيفة ، فعادت الرسل الى الخليفة بخبر الصلح وخبر الزواج ، فحسب ان الأمرين مقترنان واشتد به السخط على عمل خالد بما وقع فى نفسـه من حسبان ، فكتب اليه اعنف خطاب وجهه الى قائد من قواده أو وال من ولاته ، وسماه « ابن أم خالد ... » وقال له فى خطابه : « انك لفارغ ! » ونعى عليه انه « ينكح النساء ويفناء بيته دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجفف بعد »

وقد كتب خالد الى الخليفة يعتذر فى أنفة وعزة : « أما بعد فلعمرى ما تزوجت النساء حتى تم لى السرور وقرت بى الدار ، وما تزوجت الا الى امرىء لو عمدت اليه من المدينة خاطبا لم ابل . دع انى استثرت خطبتى اليـه من تحت قدمى . فان كنت قد كرهت لى ذلك لدين أو دنيا أعتبتك . واما حسن عزائى على قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقى حيا او يرد ميتا لابقى حزنى الحى ورد الميت ، ولقد اقتحمت فى طلب الشهادة حتى ايست من الحياة وايقنت بالموت . واما خدعة مجاعة اياى عن رأيى ، فانى لم اخطىء رأى يومى ولم يكن لى علم بالغيب ، وقد صنع الله للمسلمين

خيرا ، أورثهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين »

وقال فى رسالة أخرى : « انى لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به وحتى عجف الكراع ونهك الخف ونهك المسلمون بالقتل والجراح »

وقد ظن خالد أن الخليفة لم يكن ساخطا عليه ذلك السخط لولا أصغاؤه « للأعيسر » كما كان يسمى عمر بن الخطاب ! ويخيل الينا أن سخط الخليفة لم يكن ليبلغ به هذا المبلغ لولا أن زواجه ببنت مجاعة كان مسبوقا بذلك الزواج الذى خبطت فيه الظنون بعد مقتل مالك بن نويرة

▭

وعلى هذا انقضى واجب خالد بن الوليد فى حروب الردة كأحسن ما ينقضى هذا الواجب ، وقام وحده بأوفر سهم فى هذه الحروب ، لأنه قمع أخطر الفتن فى الجزيرة العربية من أقصاها الى أقصاها . فقمع فتنة بنى أسد وحلفائهم وخطرها أنها كانت اقرب الفتن الى المدينة ومكة ، وقمع فتنة بنى حنيفة وخطرها انها كانت فتنة القبيلة الأقوى والعديد الأكثر بين العرب قاطبة ، وحقق كل ما ندبه له الخليفة وكل ما اتفقا عليه ، سواء من الخطط التى نظرا معا فى تفصيلاتها أو من الخطط التى عرف خالد غاياتها وابتدع لها ما ارتآه من أساليبها فى أماكنها وأوقاتها . ولم يخالف رغبة الخليفة الا فى موضعين لهما ــ كما أسلفنا ــ علاقة بمسألة زواج

أما الأولى ــ وهى زواج ليلى امراة مالك ــ فقد تقدم تلخيصها وجملة الرأى فيه كما أسلفنا انه عمل يحوج خالدا الى الاعتذار والتفسير ، وأنه صفحة كان خيرا له لو طويت

من تاريخه ، فما فيهـا مزيد افتخـار ، وفيها على أهون القولين مقام اعتذار

وأما الأخرى فلا يسع أحدا ان يسهو فيها عن عجلة خالد الى الزواج على غير عادة القوم فى ميادين القتال

ولكن لا يسع أحدا كذلك أن يتعدى هذا الى مظنة تمس نية الرجل أو تجعل صلحه لبنى حنيفة متصلا برغبته فى الزواج ببنت مجاعة زعيم الحنفيين فى صلح اليمامة

ذلك بعيد ، جد بعيد

لأن بنت مجاعة كانت بين يديه ، وكان فى وسعه أن يقتل أباها نقمة من خداعه اياه ، ومرضاة للخليفـة الذى أمره باستئصال من يحمل السلاح فى القبيلة ، فهـو يقتله ولا معتبة عليه

ولم يصالح خالد بنى حنيفـة وهم مجمعون على قبول صلحه . بل كان منهم زعيم له أنصار وأتباع ــ هو مسلمة ابن عمـير ــ أبى أن يذعن لشروط مجاعة ومضى يهتف فى قومه : « يا بنى حنيفة ! قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شىء ، فان الحصن حصين والطعـام كثير ، وقد حضر الشتاء »

فلما عارضه مجاعة وذهب برأى الأكثرين من قومه تمادى مسلمة بن عمير فى لجاج الخصومة وانسل الى فسطاط خالد يريد أن يفتك به ويشيع بموته الفتنة التى لا تؤمن عقابيلها فى معسكره ومعسكر بنى حنيفة ، فتنبه خالد اليه وسأل : من هذا المقبل ؟ فعرفوه به فقال : أخرجوه عنى . فلما اخرجوه وجدوه يخفى السيف فى ثيابه ، فلعنوه وأوثقوه فى الحصن وأخذوا عليه عهدا لا يقربن بعدها من فسطاط خالد حتى تنتهى بيعة قومه على الاسلام ... ولكنه غدر بعهده وافلت بالليل الى عسكر خالد مصرا على قتله ، فلما أدركوه دون

بغيته أجال السيف على حلقه فقطع أوداجه وآثر الموت على التسليم

ومع هذا بقيت بلدة « القرية » ووادى العرض فى اليمامة لم يشملهما الصلح الذى شمل العسكر فى عقرباء . فلم تكن مطاولة القوم خيرا من المصالحة فى حالة كتلك الحال ، ولم يكن فى طاقة المسلمين أن ينهدوا للمطاولة بعد أن قتل منهم من قتل وجرح من جرح ومضى على أكثرهم عدة شهور بين مشقة السفر ومشقة الهول والبلاء ، ولم يكن ارجاء التسليم مأمون المغبة اذا استثيرت نخوة الحنفيين وفيهم من يعاند فى الخصومة ذلك العناد ، ولقد يكون المستسلمون منهم أسرع الى النكسة يوم يشهدون بأعينهم سبى النساء « غير حظيات » وقتل القادرين على الحرب من فتية وكهول

فدواعى خالد الى الصلح أظهر وأرجح من ان يعتسف معها داع آخر غير معقول ولا مستساغ ، وأن الداعى الذى لا يعقل ولا يستساغ هنا لهو التعليل بزواجه من فتاة اليمامة ! وأيسر شىء لديه أن يسببها بعد قتل ذويها ، ثم يكون ذلك أدنى الى رضى الخليفة وتحقيق ما أمر به ، قبل أن يطلع على الموقف فى اليمامة من جملة نواحيه

▭

وبعد فليحسب زواج خالد كله فى اى سجل يشاء أن يحسبه الحاسبون

ففى سجل المفاخر الاسلامية شىء يحسب له بعد حرب اليمامة لن يطول فيه خلاف ، فتلك أول حرب ظهر فيها للمسلمين مصداق قول النبى عليه السلام أنه سيف من سيوف الله

كان الخطر على الدين الجديد من العرب أنفسهم ومن امم

« الاهاجم » التى تحيط بالبلاد العربية

وقد رأينا نصيب خالد من وقاية الإسلام فى ارضه ، وهو أوفى نصيب

وسنرى نصيبه من مراس الخطـر الآخر وما هو باكبر الخطرين ، ولكن نصيب خالد فى مراسه كان أوفى النصيبين

الفتوح

أعظم عجائب التاريخ

فى سبع سنين قصـار فتح العرب كل ما اقتحموه من بلاد الفرس والروم

فتقوضت فى الشرق دولة الأكاسرة ، وتداعت فى الشمال والغرب دولة القياصرة ، وزال سلطانها من الشام وفلسطين وافريقية الشمالية ، وشغلت بنفسها زمانا عن الفاتحين وما فتحوه

عجيبة من اعظم عجائب التاريخ

لا يبرح المؤرخون حتى ايامنا هذه يأتون فى تعليلهـا كل يوم بعلل جديدة ، ويفيضون فى شرح السوابق واللواحق على النحـو الذى يفسر العجب بالمألوف ، ويرد الدهشة الجامحة الى قرار البحث والتدليل.

وهو جهد لا نعرض له فى هذا الكتاب ، ولا يلزمنا هنا أن نستقصيه ونحاول البت فيه

انما يعنينا منه شيء واحد وهو تقدير عمل خالد ، وتقدير الكفاية التى تضطلع بذلك العمل ، وليس تقدير ذلك بعسير ولو بقى التاريخ منشعب اللسان فى استقصاء علل الهزائم التى نزلت بالفرس والروم

فالأسباب التى قضت على الفرس والروم بالهـزيمة ـ كائنة ما كانت ـ ليست هى الأسباب التى قضت للعـرب بقيام دولة وانتشار عقيدة ، لأن استحقاق أناس للزوال لا ينشىء لغيرهم حق الظهور والبقاء

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهـم

عرب وكفى ، ولم تكن المسألة فى لبابها كفاحا بين الأجناس والعناصر بما لها من المزايا وما فيها من العيوب

فقد كان فى أرض الدولتين عرب كثيرون يدينون لهما بالطاعة وينظرون اليهما نظرة الاكبار والمهابة ، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة المسلمين عددا وامضى سلاحا وأقرب الى ساحات العراق والشام من أولئك النازحين اليها من جنوب الجزيرة العربية

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا امام المسلمين وهم كذلك أوفر فى العدد والسلاح واغنى بالخيل والابل والأموال

فهى نصرة عقيدة لا مراء

وينبغى ان يذكر المؤرخون هذه المسألة من جانبيها ولا يقصروا النظر فيها الى جانب واحد

فاستحقاق النظم القائمة للضياع هو فى وقت واحد سبب ضياعها ، وهو حجة العقيدة التى تخلفها وتنتصر عليها فى ساحة النزاع

اذ كان ادعى الدواعى لظهور عقيدة جديدة أن النظم القائمة قبلها لا تتماسك ولا تصلح لحماية ذمارها

فاذا قيل إن العقيدة الجديدة قد انتصرت لتداعى النظم التى اصطدمت بها فليس هذا تعليلا وكفى ، ولكنه كذلك شفاعة وحجة للظهور ، ودليل على أنها حق صالح كأصلح الحقوق الكونية ، وأنها علاج عالمى مطلوب جاء فى الأوان

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغنى عن كل قول أفكل مناضل متذرع بالعقيدة صالح فى تلك الآونة للانتصار ؟

ينبغى ان يكون الأمر كذلك لو كان تعليل النصر بالعقيدة مغنيا عن كل تعليل

ولكن الواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالا أولى

خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائها

وقد افلح أناس وأخفق آخرون

فانهزم عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة حيث انتصر خالد فى اليمامة

وخرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من طرفيه فى وقت واحد ، فسار خالد من نصر الى نصر ومن توفيق الى توفيق . ولبث عياض يتردد ويقدم خطوة ثم يحجم أخرى حتى أدركه خالد بالمعونة فى دومة الجندل

وسبق خالد بن سعيد خالدا بن الوليد الى الشام فغرر به الروم حتى استدرجوه الى مرج الصفراء فأوغل وراءهم ولم ينتظر حتى تدركه أمداد الخليفة التى أرسلها اليه تباعا بقيادة عكرمة بن ابى جهل والوليد بن عقبة وذى الكلاع الحميرى ، فاحدقت به جحافل الروم واوشكت أن تلتف به من ورائه ، ولولا يقظة الخليفة وتلاحق أمداده فى أوقاتها لقضوا عليه

فلا انحلال الدولتين الفارسية والرومانية بمغن عن الاعتراف للعقيدة المنشئة بحقها فى الغلب وحاجة العالم اليها فى تلك الآونة

ولا العقيدة المنشئة بمغنية من فضل رجالها وحماتها ، وكفاية سواسها وقادتها

فهى عقيدة منشئة يذود عنها حماة قادرون ، وكان خالد ابن الوليد فى طليعة هؤلاء الحماة

□

سبقه اسمه الى أطراف الدولتين فحارب أعداءه بهيبته

قبل ان يحاربهم بسيفه ، وكانت هذه أول مزية لاختياره وأول فضل يحسب له فى ميزانه ويضاف الى قيادته ويعمل عمله فى نفوس أعدائه كما يعمل عمله فى نفوس أتباعه

قال صاحب دومة الجندل لقومه حين سمع بمسيره اليه : « أنا أعلم الناس بخالد . لا أحد أيمن طائرا منه ، ولا أصمد فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه . فأطيعونى وصالحوا القوم ! »

وكان الرجل من العرب يعيش فى الشام ويهجر موطنه الاول ولكنه يسمع باسم خالد ويتلقى انباءه من وراء المهامه والدروب ، فما هو الا أن ينضوى اليه حتى يوقن بيمن طائره ويسرع الى طاعة أمره عليما بانه لا يامر الأمر الا وهو قادر على انجازه. كما قال الشاعر الفارس عمرو بن العمرد :

اذا قال سيف الله كروا عليهم
كررت بقلب رابط الجاش صارم

ويتناقل الرواة قصة لقائد من قادة الروم لا تقل فيها دلالة الخيال عن دلالة الحقيقة ، ان كانت القصة من توليد الخيال

قيل ان قائدا من قادة الروم اسمه جورج برز له فى أكبر وقائع الشام وسأله : أحق أن الله أنزل على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم الا هزمتهم ؟

قال خالد : لا !

قال : فبم سميت سيف الله ؟

قال : تابعناه فقال أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله . فانا من أشد المسلمين على المشركين

وكل هذا شبيه بأن يكون

فان لم يكن نبأ خالد قد وصل الى كل عدو من أعدائه

فالذى لا ريب فيه ان اتباعه كانوا على علم بنبئه فكانوا على ثقة بسداد رأيه ومضاء عزمه ، وكانوا يطمئنون اليه فيعملون معه عمل المطمئن الى نجاح سعيه ، وهذا هو فضل القيادة الصالحة فى نفوس الاتباع

حالة الفرس والروم

خرج خالد وزملاؤه للقاء الفرس والروم بعد وفاة النبى عليه السلام بسنة واحدة ، وبعد حروب طالت فى الجزيرة العربية عدة سنين

فلو كانت الفتن وموت الزعماء قاضية على كل أمة كيفما كان السبب وكانت البيئة لكان مصاب العرب كمصاب الفرس والروم فى تلك الأعوام : فتن وفتن ، ونبى مات وملك قتل أو قيصر شاخ ! فهؤلاء وهؤلاء فى العلة سواء

لكن حركة العرب حركة انشاء ونماء

وحركة الروم والفرس حركة اختلال وتقويض

وجسم الفتى اليافع مضطرب لا يستقر على حال ، وكذلك جسم الهرم الذاهب ، ولكن شتان اضطراب واضطراب

كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الدولة الفارسية يوم قصد خالد الى تخومها من ناحية السواد

وكانت علل مثلها ــ وان كانت أخف منها ــ قد اصطلحت على بنية الدولة الرومانية الشرقية ، يوم قصدها زملاؤه القواد من شتى نواحيها قبل الشام والبلقاء : وهذه خلاصة وجيزة عن الحالة يومئذ فى الدولتين :

يقول شراح الحضارات ان الحضارات تبتدىء بمعنى روحى

قليل المظهر ثم تنتهى الى مظهر ضخم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعانى الروحية

وهذه هى الحالة التى كانت عليها دولتا الفرس والروم عند اصطدامهما بالدعوة الاسلامية فى نهضتها الاولى

ففى بلاد الفرس خفت صوت الدين ومضى على ظهـور « زرادشت » مصلحهم الدينى الكبير زهاء اربعة عشر قرنا ، فرث الصالح من مذهبه وازداد الطالح سوءا على سوء

وخلف فى بيت الملك امراء ضعفاء بعـد آبائهم الاقوياء فشغلوا بالنزاع بينهم واسقطوا هيبتهـم فى بلادهم وغير بلادهم ونهكوا قوة الدولة فى فتن وبيلة وخيمة وترف اوبل واوخم . وما برحوا فى طغيانهم وتهافتهم حتى ولى الملك ازدشير فراب صدعه وأوشك أن يعيـده الى سابق مجده وتركه فى القرن الثالث للميلاد وهو موحد بعض التوحيد بالقياس إلى ما كان عليه قبل ذلك من التفرق بين العشائر والرؤساء

ثم نكس النكسة الاخيرة وشاع فيه الفساد علوا وسفلا قبيل ظهور الدعوة الاسلامية . وكان الملك المعاصر للنبى عليه السلام كسرى ابرويز فثار به ابنه شيرويه فقتله ونكل بذوى قرباه ، واعقب طفلا صغيرا فلم يلبث أن قتل وتولى بعده قائد الجيش شهريزار ، فنفس عليه القواد والعظماء منزلتـه المغصوبة فقتلوه وولوا عليهم بوران بنت كسرى ابرويز ، فلم تتم فى الملك سنة وبضعة أشهر حتى ماتت وخلفها فتى من بنى عمومتها الابعدين ، ثم قتل وخلفتـه بنت أخرى لكسرى ابرويز فقتلت ، وقتل من بعده الى أن تولى الأمر يزدجرد بن شهريار والدولة تترنح من فرط الاعياء

ومنيت فى ايامها الاخيرة بضربة قوية فى حروبها الخارجية : وهى غلبة الروم عليها وانتزاع مصر والشـام منهـا ورد

حدودها الى دجلة والفرات بعد أن طغت على حدود آسيا الصغرى ، وقبل هذا منيت بضربة دون هـذه الضربة فى القوة والضخامة ، ولكنها أشد منها أثرا فيما نحن بصدده من أحوال الدعوة الاسلاميـة : وتلك هى ضربة الهزيمة « بذى قار » التى تقدم وصفها فى أول هذا الكتاب . فان هذه الهزيمة أطمعت فيها العرب بعد مخافة وهيبة ، ولاسيما العرب المقيمين بجوار ذى قار وأرباض السواد ، ومنهم جند خالد وزملائه الذين تقدموا لمنازلة الفرس فى العراق

وسـاءت من جراء ذلك كله شـؤون الأمة فى الديار الفارسية ، فتهالك العلية على المظاهر وانغمسوا فى الترف واستكثروا من النفائس والأموال وشغلوا عن سواد الأمة فشاع بينهم الفقر والضنك والتـذمر وبغض الحـكام ، ولم يعلمـوا فيم هم مسوقون ، وعلى أى شىء يتقاتلون ويتفانون . وهى حال تؤذن بالتصدع والانهيار لأول صدمة تهز الأركان والجدران

ومن أعجب العجب أن يفطن رجل كالمغيرة بن شعبـة لدلالة هذه الحال ، وهى معدودة فى عصرنا من دروس علوم الاجتماع والتاريخ التى لا يصل اليها الباحث الا بعد مقارنة واطلاع واسع مستفيض ، ولكنه العجب الذى يفسر لنـا ما هو أعجب منه : وهو وفرة نصيب العرب يومئـذ من أقطاب الرجال ذوى الحنكة والنظر البعيد ، وانهم قد ظفروا لأنهم كانوا على أهبة فى هذا الباب حرمتها كلتا الدولتين ، على كثرة من بهما من الزعماء أصحاب المظاهر والشارات

دخل المغيرة بن شعبة على رستم بطل الفرس المشهور فى التواريخ والأساطير فجلس معـه على سريره . فاستكبر أعوانه هذه الجرأة من ذلك البدوى « المغرورُ » واجتذبوه من مكانه على السرير فى عنف شديد . فما اهتز المغيرة ولا استكان ولا زاد على أن قال : لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام

ولا أرى أسفه منكم . انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضــا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كمــا نتواسى ــ أى نتســاوى ــ فكان أحسن من الذى صــنعتموه معى أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض . ان هذا الأمر لايستقيم فيكم ولا يصنعه أحد . وانى لم آتكم ولكن دعوتمونى ... اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وان ملــكا لا يقوم على هــذه السيرة ولا على هذه العقول »

كلمات من ذهب !

لو كان فيمن سمعها من الفرس من يضارع المغيرة لقال فى جوابه : « واليوم علمنا أنكم غالبون ، وان أحق الملك أن تقوم له قائمة لهو الملك الذى قوامه من هذه السيرة وهــذه العقول »

على أن الأمم لا تقفر من الأحلام كل الاقفار فى أظلم ظلمات الجهــالة والادبار ، فقــد وزن « يزدجرد » شأن العرب والفرس بالميزان الصحيح حين قال لرستم : « انما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوى اليــه الطير بالليل ، فتبيت فى سفحه فى أوكارها . فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها . فان شذ منها شىء اختطفه . فلو نهضت نهضة واحدة ردته ، وأشد شىء يكون فى ذلك أن تنجو كلها الا واحداً. وان اختلفت لم تنهض فرقة الا هلكت ، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم »

وصف صادق من جملة أطرافه

وعلامة من علامات الانحلال أن لا ينفع الوصف الصادق ولا يهدى العارفين به الى رأى متفق عليــه ، كمــا يعرف المرض ولا ينتفع بعرفانه فى العلاج اذا شارف الجسم الفناء . ولهذا اتفق يزدجرد ورستم على الصفة ولم يتفقا على العمل النافع مع العرب فافترقا مختلفين

وكما بقيت لأهل فارس يومذاك مسكة من حلوم بقيت

لهم كذلك مسكة من مروءة الفرسان ، أو على الأصح مسكة من المراسم والمأثورات الحربيـــة ، وهم أولع أمة بالمراسم والمأثورات كافة

وهـــذه المسكة شرف للقادر ولـكنها بلاء على العاجز المتخاذل ، كأنها الوثبة التى تعجل بالهلاك ان وثبها المريض الهزيل ، وانها فى الأقوياء لمعوان على المجد والطموح

فربما أقدموا على القتال وهم يحسبون انهم مقدمون على مباراة فى حلقة صراع ، ينظرون عدوهم حتى يصل اليهم كما ينظر المصارع نده حتى يأخذ بعضديه فى أمان !

ففى وقعة الجسر أقبل بهمن جاذويه ومعه راية الفرس الكبرى من جلود النمور طولها عشر أذرع وعرضها ثمان ، وبين يديه جيش يربى على جيش المسلمين مرات . فأرسل الى أبى عبيدة قائد المسلمين يقول له : اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبـــور واما ان تخلوا بيننا وبينـــه ! فتعجـــل أبو عبيدة وعبر النهر على جسر نصبوه ، والفرس ينظرون !

مثل هذه المراسم جهل بحقيقة الحال ، وحقيقته انه صراع حياة وموت بين أمتين ، وليس بحلبـــة سباق أو حلقـــة رهان بين لاعبين فى ملهاة

▭

أما دولة الرومان الشرقية فقد كانت فى حال لا تفضـــل حال جارتها وعدوتها فى محنة العقيدة ومحنـــة النزاع على الملك والولاية

ضرب المثل بالجدل البيزنطى فى التاريخ القديم والحديث من جراء الخلاف على المذاهب الدينية فى الدولة الرومانيـــة الشرقية ، وكان معظم أبناء الولايات من النساطرة واليعاقبة يخالفون مذهب الدولة الرسمى ويمقتون رجاله ويرمونهم

بالهرطقة والوثنية ، وكان القائلون منهم بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أقرب الى الاسلام منهم الى المسيحية

وابتذل عرش الملك بالقتل والاغتصاب فضعف الولاء له فى نفوس العلية وقواد الجيوش . وقد استقر الأمر زمنا للقيصر هرقل الذى حضر عهد النبى عليه السلام ولكنه شقى بالفتن فى أخريات عهده وركبته الوساوس فى شيخوخته ولاسيما بعد بنائه ببنت أخته ، فاعتقد أنه مغضوب عليه مستحق لعقاب السماء

ومن كان من الرعية ذا دين غير المسيحية فهو ساخط ناقم كاليهود والوثنيين ... لأن رؤساء الكنيسة والدولة اتهموهم غير مرة بالتواطؤ على فتح البلاد مع المغيرين عليها من الفرس والبرابرة ، فأثخنوا فيهم قتلا وتشريدا حتى قيل انهم كانوا يفتكون فى المذبحة الواحدة بعشرات الالوف من الرجال والنساء والأطفال

وعاشت فى ظل الدولة الرومانية قبائل غسان وجذام وكلب وتنوخ وغيرها من قبائل العرب فكانت تعينها وتستعين بها على منافساتها من قبائل المناذرة فى الحيرة . ولكن غلبة الفرس تارة وغلبة الروم تارة اخرى على تلك البقاع ضيع الثقة بالدولتين . وهيأ نفوس العرب لقبول دعوة جديدة ولاسيما الدعوة التى تأتيهم من أبناء جنسهم فى الجزيرة العربية ، وبها اعتزازهم على العجم كافة من فرس وروم . واتفق فى تلك الفترة انقطاع الهبات التى كان رؤساء العشائر يتلقونها من قياصرة الدولة وولاتها فبرموا بها ودوا لو انقلبوا عليها ساعة يأمنون كيدها ويوثقون الصلة بينهم وبين خصومها

ويؤخذ من رسالة فجيتيوس Vegetius فى علم الحرب أن نظام الجيش الرومانى فى الغرب والشرق كان قد تعاوره الخلل قبل ظهور الدعوة المحمدية بأكثر من قرنين . ففى

هذه الرسالة يقول فجيتيوس الذى يعدونه أمام أساتذة الحرب بين الغربيين أن « اللجيون » قد وهن واضمحل ويذكر من أسباب وهنه واضمحلاله أن مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحاباة والصنيعة بعد أن كانت وقفا على الكفاية والخدمة الطويلة ، وان عامة جنوده يهربون منه ويؤثرون الخدمة فى الفرق المتطوعة لأنهم يستثقلون تمريناته وأسلحته ويستقلون جزاءه ويضيقون ذرعا بوطأة نظامه

وقد أتيحت للرعية فى الشام والبلقاء فرصة حسنة للمقارنة بين حكم العرب وحكم الرومان قبل الوقائع الفاصلة التى دارت فيها الدائرة على الجيوش الرومانية . فقد كان رجال الجيش الرومانى يهبطون المدينة فينهبون بيوتها وغلاتها ويستبيحون أعراضها ويهتكون حرماتها ويسكرون ويعربدون فلا يأمنهم أحد مطموع فى ماله أو غير مطموع منه فى شيء على الاطلاق ، وانما هى العربدة والضراوة والاستخفاف . ثم جاءهم قوم لا يعتدون على عرض ولا يقربون الخمر ولا يعفون عمن يقربها منهم ولو كان من عليتهم ، ويقيمون فى المدينة ثم يرحلون عنها فيردون الجزية الى أهلها لأنهم انما اخذوها لحمايتهم وحمايتها . فكانت المقابلة بين الحكمين مدعاة الى التراخى فى الدفاع عن الحكم القديم وتمنى الغلبة للحكم الجديد . وقد تتجاوز ذلك الى المساعدة الظاهرة كما حدث من بعض العرب المسيحيين والوثنيين على السواء

بل ربما تجاوزت كل هذا الى ازعاج ثقة القادة بأنفسهم عند المقابلة بينهم وبين قادة خصومهم . فمما يروى فى هذا المعنى وهو كثير أن أخا القيصر وقائده سأل رجلا من قضاعة عن شأن المسلمين بعد ما أقام بينهم أياما فقال له :

« هم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، لو سرق ابن ملـكهم قطعوا يده ، ولو زنى رجموه اقامة للحد » . فقال القائد : « لئن كنت صادقا لبطن الارض خير من لقـاء هؤلاء على ظهرها »

ولما بدات المعارك بين العرب والدولتين كان العرب ربما أخطأوا فلم يضربوا ضربتهم فى موضعها فيتسع لهم الوقت لاصلاح الخطأ والرجوع الى الخليفة لطلب النجدة والمشورة ، لأن أعداءهم مشغولون ابدا بنزاع أو فتنة أو ريبـة . أما الروم والفرس فلم يكن لهم متسع لاصلاح خطأ يخطئونه وكثيرا ما كانوا يخطئون . فبدأت المعـارك بين الفريقـين وعنـد أحدهما كل مظاهر الأسباب التى تدعو الى النصر وعند الآخر كل حقائق الأسباب التى تدعو اليه

وقد اتفقت كلمة الصحابة على حرب فارس والروم وسيف الله بوادى الوبر فى اليمامة لم يطـل استقراره فى غمده بعد وقعة عقرباء

وهناك حلقات من الحوادث تسوغ لنـا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتدادا للوقعة الاولى بذى قار ، او استئنافا لتلك الوقعة بعد فترة لا تحسب طويلة فى تواريخ النزاع بين الأمم ، وهى نيف وعشرون سنة

فالقبائل التى ارتدت بالبحرين وقبائل تغلب التىانحدرت مع سجاح من الجزيرة كانت كلها من أتباع الدولة الفارسية على صورة من صور التبعية فى ذلك الزمان ، وكانت تعيش كلها فى ظل تلك الدولة من أيام المناذرة الى زوال ملـكهم بعد وقعة ذى قار

والبطـلان اللذان تعودا ضرب الفـرس والاغارة على

دهاقينهم فى تلك الأصقاع كانا من بنى بكر الذين نهضوا بالعبء الأكبر فى وقعة ذى قار ، وما برح العداء بينهم وبين الفرس والقبائل التى تواليهم على اشد ما يكون : وهما المثنى ابن حارثة الشيبانى وسويد بن قطبة العجلى . وكلاهما على ذكر من هزيمة الفرس وعلى خبرة بقتالهم فى اطراف العراق. وقد صحب المثنى النهر فى غاراته حتى بلغ القطيف وهجر ولم يقف له أحد فى طريقه . فهذا مع عجز الفرس عن تأديب رعاياهم فى اليمن لدخولهم فى الاسلام قضيا على تردد الخليفة فى أمر البعثة الفارسية ، فصحت عزيمته وعزيمة أصحابه على تجريدها بعد الفراغ من حروب الردة بأسابيع معدودات

وقد علمنا من دأب الخليفة الصديق أنه كان لا يبرم أمرا الا أحكم تدبيره فى مرحلة مرحلة من طريقه الى منتهاه

وهكذا كان شأنه فى البعثة الفارسية . فانه ندب لها قائدين هما خالد بن الوليد وعياض بن غنم ، وأمر خالدا أن يتجه الى الابلة ثغر الهند كما سماها ، وأمر عياضا أن يتجه الى المصيخ بشمال العراق . فأيهما بلغ الحيرة قبل الآخر كان هو قائد الجيشين معا ووجبت طاعته على زميله، وقال لهما : « اذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس آمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردءا للمسلمين ولصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم »

خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى فى وقت واحد. ففيها اذكاء المنافسة بين القائدين ، وفيها تشتيت جهود الفرس فى الدفاع عن بلادهم ، وفيها تدبير النجدة سلفا لمن يحتاج اليها من الجيشين ، وفيها تيسير أمر الماء والكلأ فى الطريق للجيشين معا ، لأن امواه الطريق ومراعيه تضيق بالجيشين المجتمعين اذا سارا فى طريق واحد

وكان الصديق واخوانه يعلمون أن المسألة فى هذه الحرب مسألة يقين وعزيمة وليست مسألة كثرة وهيئة

فحرص لهـذا على أن يجنب الجيوش الاسلامية مخاوف المرتدين ونكساتهم ، واوصى القائدين الا يقبلا احدا منهم ، والا يكرها احدا من غير المرتدين على المسير فى جيشهما ما لم يقبل على الحرب برضى منه ورغبة . ولما نظر خالد الى من حوله يرفض كثيرهم ويبقى قليلهم كتب الى الخليفة يستمده فأمده بفارس واحد هو القعقاع بن عمرو التميمى ! فعجب أصحابه وقالوا له : أتمده برجل واحد ؟ قال : نعم ! لا يهزم جيش فيهم مثل هذا !

ولم تمض أيام حتى ظهر للمسلمين أنه مدد كاف وأى كفاية ! فان ثقة الناس بجيش يكون القعقاع فيـه ويتولى قيادته خالد بن الوليد قد جاءت بالمتطوعين للقتال من كل صوب وحـدب . فبلغ جيش خالد يوم شارف ميـدان القتال حتى كانت للقعقاع وقفة لعلهـا انقذت الجيش كله يبلغ ثمانية آلاف . ولم يتقدم المسلمون خطوة فى ميـدان القتال حتى كانت للقعقاع وقعة لعلها انقـذت الجيش كله وأنقذت البعثة كلها من مبدئها ، ولم يكن أحـد ليعلم ماذا تكون العاقبة لولا تلك الوقفة التى تعلق بها الكثير من مصير جيش الفرس ومصير جيش المسلمين

ففى الوقعة الاولى دعا القائد الفارسى ـ هرمز ـ خالدا للمبارزة قبل التحام الجيشين ، واضمر نية الغدر به حين يخرج منفردا بين الصفين ، فوكل به شرذمة من فرسانه ينقضون عليه وهو مشغول بمبارزته فيراع الجيش العربى بمقتل قائده كما سبق الى وهمه ، ويطبق الجيش الفارسى بعدده الكبير على الجيش العربى بعدده القليل فتكون الغلبة لأكبر الجيشين واكمل العدتين !

وأوشكت هذه المكيدة ان تتم على النحو الذى دبره هرمز

لولا أنه أخطأ الحساب فى اغتراره بقوته وجهله بصولة خالد فى مبارزته ، فظن أن الجولة بينهما تطول قبل أن يخرج فرسانه للغدر بخالد ، ولكنه صرع فى جولة واحدة وفوجىء أصحابه بهذه السرعة فاقتربوا من خالد على عجل وهو مشغول بالاجهاز على قائدهم ، واذا بالقعقاع أسرع اليهم من لمح البصر ومن ورائه جيش المسلمين بجملته يضرب فى قطيع مذعور مأخوذ بالمفاجأة ومهابة هذه الصولة العاجلة . فكانت وقعة اليوم وقعة رجلين فى جولة واحدة ، تلتها الجولات اللاحقات التى ترسمت خطاها وسارت على هداها

سار خالد الى العراق فى أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية . وأتم فى سنة واحدة ما أعيى الرومان أن يتموه فى أجيال

وقد تكتب فى شرح وقعاته بالعراق مجلدات طوال يستغرق بحثها ومعارضة رواياتها مئات الصفحات ، ولكنا لا نتوسع فى ذلك الشرح هنا لأن أعمال خالد تعنينا فى هذا الكتاب لمقصد واحد ، وهو الرجوع الى مصدرها من نفسه وعقله ومقومات شخصه

وفى هذا حسبنا أن نقول على الاجمال قبل الاشارة الى وقعاته انه لقى الفرس وأولياءهم فى خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخطىء ولم يفشل قط فى واحدة منها ، وأن قوادا من المسلمين اخطأوا فى حروب الردة وحروب الفرس والروم كما حدث من عكرمة وشرحبيل وابى عبيدة وخالد بن سعيد ، ولكن خالدا لم يخطىء قط عن خدعة أو عجلة أو قلة أهبة ، وكان يسير بجيشه ابدا على تعبئة كاملة ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئا أو غير مفاجىء ، وكان ابدا كما

وصفه عمرو بن العاص « فى أناة القطاة ووثبـة الاسد » فلا يهمل الحيطة ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة ، ولا يعز عليه أن يتحامى لقاء عدوه فى بعض الساحات لينتقل به الى المكان الذى هـو أصلح لحركاته واعون له عليه . ومن علمه بفنون القتال أنه كان يحارب بثمانية عشر ألفا وكأنه يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء . فاذا أرسل أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف الى مكان يغنون فيه فذاك أجدى من تسيير الجيش كله أو تسيير عدد منه يربى على الحاجة الضرورية ، فان طرأ فى خلال سيره ما ليس فى الحسبان فمعوله فى هذه الحالة على سرعة خاطفـة كسرعة الباشق وهو ينقض على فريسته ، فلا تشعر الفرقة التى أشخصها الى مكانها بالحاجة اليه حتى يكون معها كأنها لم تفارقه ولم يفارقها

فهى شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة ومعرفة بما هو لازم فى وقت لزومه ، ولم تخذله خصلة من هذه الخصال قط فى ساحات فارس ولا فى ساحات الشام ، مع اختلاف الميادين واختلاف الأحوال واختلاف الأعداء

وقد كانت تعبئة خالد فى المسير تشبه التعبئة التى جرى عليها العرف فى أيامه ، وهى قسـمة الجيش الى ميمنـة وميسرة وقلب وطليعة تسبقه ، وردء يلحق به ليحمى ظهره أو يلبث فى موضع من المواضع كمينا ينزل الى الساحة على غير انتظار ، لتقوى به سواعد أصحابه وتنخذل به عزائم أعدائه . ولكنه كان عند القتال يفتن باتخاذ طريقة الهجوم أو الدفاع كما توحى بها ضرورة الساعة . فيقاتل بالصفوف كما يقاتل بالكراديس ، ويواجه خصمه أو يدور عليـه ، ويتراجع أمامه أو يمعن فى الهجوم على كبة جمعه ، ويحصره أو يخلى له سبيل الهرب ، حسبما تدور به المعـركة فى أثنائها أو توحى به طوالعها قبل إبتدائها

فلما عقدت له القيادة على البعثة الفارسية أرسل جيشه على فرق ثلاث من طرق مختلفة ، فقدم المثنى على راس فرقة ثم الحق به عدى بن حاتم صاحبه فى حرب بنى أسد ، ثم لحق بهما على راس جيشه وواعدهما موضعا الى الجنوب الغربى من البصرة الآن ، ولعله توخى تسهيل السقى والمرعى بهذا التقسيم ، ثم اختبار الطريق بقيادة الرجل الذى كانت له سابقة الدراية بهذه الدروب

وكتب الى هرمز قائد الفرس يخيره بين الاسلام والجزية أو الحرب ، ويقول له فى ختام كتابه الوجيز : «جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »

ثم عدل الى كاظمة بعد أن كان موعده الأول « الحفير » لأنها كانت على ما يظهر أوفق لتعبئة جيشه

وهنـــاك التقى بجيوش الفرس ــ وعلى رأسهم هرمز ــ فوقعت بينهم الوقعة التى سبقت الاشـــارة اليها وتعرف باسم ذات السلاسل ، لان الفرس كانوا يوثقون أنفسـهم فيها بالسلاسل جماعات جماعات ليثبتوا فى القتـال ولا يتأتى لهم الفرار ان أرادوه • ولئن صح هـــذا لقد كانت مخاوف الشك فيه أظهر من صدق العزيمة والطمأنينة الى النية القوية

ولما تبدد جيش هرمز تعقبه المثنى بن حارثة وعبر الفرات ليأخـــذه متفرقا قبل أن تتجمع فلوله حيث تأمن احتثاث الملاحقة وراءها ، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمز وتفرق جيشه أنهم مهددون فى « المدائن » عاصمة ملكهم فحشدوا لملاقاة المسلمين جيشا عظيما بقيادة قارن بن قريانس يعاونه أميران من بيت اردشير • فأدرك فلول هرمز فى « المذار » وضمهم اليه، وكان المثنى قد علم بخروج هذا الجيش العظيم وآجتماع الفلول المتفرقة اليـــه فكتب الى خالد يستأمره ويستمده • فكان خالد هو الجواب

ووصل خالد الى المذار وهو كامل التعبئة فتصدى قارن لمبارزته على عادتهم قبل ابتداء القتـــال ، فنهض اليه خالد ومعقل بن الأعشى يستبقان ، وأراد معقل أن يحمى خالدا من مثل مكيدة هرمز فيتلقى الضربة دونه أو يسبقه الى قتل قارن. وبرز عدى بن حاتم وعاصم بن عمر لمنازلة الأميرين، فظفروا بهم جميعا ثم اشتبك الفـريقان في ملحمة حاربوا فيها كما قال المؤرخون حرب حنق وضغينة ، وبلغ بعضهم بعدد القتلى من الفرس ثلاثين ألفا،ولولا النهر ولياذ الفرس بالسفن لكانت المقتلة أعظم من ذاك ولم يكد يفلت من الموت أحد

□

ورانت الحيرة بعد وقعة المذار على عقول القادة من الفرس فخيل اليهم أن في هؤلاء العرب سرا لا يدركونه وأحبوا ان يحاربوا آفتهم بآفة من جنسها فاســتعانوا بأوليائهم من أبناء القبائل العربية فيما بين النهرين ، واشترك هؤلاء فى كثير من الوقائع التى دارت بين الفرس والمسلمين بعد وقعة المذار ، وضايقوا المسلمين غير قليــل فى الوقعتين التاليتين بالولجة وأليس

وكان خالد كعادته فى الحيطة والمبادرة . فاستبقى طائفة من جيشه فى البلاد التى فتحها حماية لظهره واســتعدادا لمن يجترىء عليها بعد مسيره . وتقدم الى الولجة على تعبئة كاملة بمن معه جميعا ، ثم فصل طائفتين من الجيش أثنــاء الطريق ليكمنا على مقربة من الولجة ويلتفا فى ساعة الحرج بالجيش الفارسى من ورائه . فطالت المدافعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكمينان . وتردد النصر بين الفرس والمسلمين تارة هنا وتارة هنــاك حتى ظن الفرس أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى . ثم ظهر أحد الكمينين وظهر

الكمين الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الاول. فتولاهم اعياء اليأس بعد اعياء المصابرة والمجاهدة ، وولوا مدبرين وهم يتخففون من السلاح والعتاد فى مهربهم ... فكثر منهم القتلى والأسرى كما كثر نصيب المسلمين من الغنائم والاسلاب

وجاءت بعد وقعة الولجة وقعة «أليس» وهى أعجب الوقائع فى حرب العراق بما اتفق فيها من صنوف الحيلة وصروف المقادير ومعارض النقمة وعواقب الرجاء مع الغالب وعواقب اليأس والقنوط مع المغلوب ، ولعلها هى الوقعة الحاسمة فى النزاع بين المجوسية والاسلام

راع الشاهنشاه تلاحق الهزائم على جيوشه ، وغاظ العرب الموالين له أن يؤخذوا فى حماهم وأنفوا أن يهانوا ولا يراهم الناس كفاء لتلك القبائل الواغلة عليهم ، فتلاقوا فى الرقعة الوسطى بين ديارهم جميعا وهى أليس ، وانتظروا هناك جحافل من الفرس وعدوهم أن تربى فى العدد والعدة على كل جيش نزلوا به الى الميدان فى المعارك الماضية

وهنا تتراءى فى الموقف اصبع المقادير

فان « بهمن جاذويه » قائد الفرس الذى أمره الشاهنشاه بالمسير الى أليس أناب عنه قائدا آخر يدعى جابان وشخص هو الى المدائن ليلقى مولاه ويقلب معه الأمر على وجوهه فى مسائل شتى لا تغنى فيها المراسلة غناء الحديث والمشاهدة، وليأتى من المدائن بمدد آخر يضاف الى جيشه الأول والى جموع القبائل العربية عند الفرات. وقال لجابان وهو يودعه « كفكف نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك ، الا أن يعجلوك »

وبلغ المدائن فاذا مولاه مريض يجود بنفسه، وليس نظام الوراثة على عرش فارس فى ذلك الحين من الوضوح

والاستقرار بحيث يطمأن اليه اذا مات الملك والجيش بعيد والمتربصون كثير والشيع فى البلاد أكثر من المتربصين

فبقى بهمن فى المدائن ، ووصل جابان الى أليس قبل أن يصل اليها خالد فألقى أثقاله وأمر بتهيئة الطعام • ووصل خالد وهم مقبلون على طعامهم لا ينتظرون وصوله • فلبثوا على طعامهم لانهم أمروا من جهة ألا يعجلوا الى القتال حتى يوافيهم قائدهم الكبير ، ولأنهم من جهة أخرى لم يحسبوا أن خالدا يلقى أثقاله وهو عـلى تعبئة كاملة مستعد للنزال فى كل لحظة ، ولانهم على ما يظهر كانوا يواجهون القتـال أبدا كأنهم يواجهون ساحات الصوالج والأكر أو ساحات المباراة فى « الالعاب الرياضية » •• وانما تبدأ فيها المباراة باتفاق الطرفين !

ولكن خالدا ضرب ضربته الأولى فى الجموع العربيةفقتل قائدها وأثخن القتل في صفوفها ، وثار الفرس الى السلاح مكرهين لئلا يمهلوا خالدا حتى يفرغ من الجموع العربيـة ويتحول اليهم بين لحظة وأخرى

فثبتت الجموع العربيـــة حين أسعفتها النجدة ، وثبت الفرس وطال بهمالثبات لعلمهم أنه صبر ساعات ثميدركهم قائدهم الكبير • وابتلى المسلمون من هؤلاء وهؤلاء ببلاء لم يعهدوه من القوم قبل ذلك اليوم•فاشتد الأمر بخالد وثاب الى الله يستلهم العزم للمسلمين وينذر له الضحايا ان منحه أكتاف أعدائه : « فلا يستبقى منهم أحداً يقدر عليـه حتي يجرى نهرهم بدمائهم » • وفى هذا النذر بقية من البدوية المخزومية لا تخفى على اللبيب

وطال صبر الفرس فنفد
وتساقطت رؤوس العرب الموالين لهم فجزعوا
ولاحت لخالد لوائح النصر الذى سـاله الله ، فلم ينس

نذره ونادى فى المسلمين : « الأسر ! الأسر ! لا تقتلوا الا من امتنع » ... لأنه نذر ليجرين النهر بالدماء...فليجر النهر اذن بالدماء

وأمر بضرب أعناق القوم فى النهر وقد حبس ماءه ! فلم يجر بالدماء ! لأن الدماء تترقرق ولا تسيل ولو قتل أهل الارض كما قال له أصحابه.فأطلق الماء فسال بالدم الاحمر قانيا ثلاثة أيام !

▭

وحمادى ما يقال فى الاعتذار لخالد من هذه النقمة المفردة فى تاريخ صدر الاســـلام أنها كانت شرعة الحرب فى تلك الايام ، وأنه كان يدين بها أناسا صنعوا بالملل الاخرى مثل ما صنع بهم فى هذه المعركة ، وعاملوا أسرى الحرب ومن لم يحاربوهم قط مثل هــذه المعاملة فى حروبهم مع العـــرب والدولةالرومانية ، وان خالدا حسب أن هذه الذبائحقربان الى الله...ودماء المشركين أشبه القرابين بميادين الحروب !

وهو حسبان يوائم صرامة طبعه ويحيك فى صدر رجـــل الحرب وسليل رجال الحرب منذ أمد بعيـــد ، وأكبر الظن عندنا أنه لو كان قائد الجيش رجـــلا ممن طالت صحبتهم للنبى عليه السلام كأبى عبيــدة أو سعد بن أبى وقاص أو عمر بن الخطاب لتوسل الى الله بغير هذه الوسيلة حين ازم الموقف وجد الجد فى معـــركة أليس . فقد صفح عمر بن الخطاب عن أسرى السواد وظفر المســلمون بألوف الأسرى فى معارك العراق والشام ومصر فسرحوهم وعاملوهم بحكم الأسرى فى القرآن الكريم ، وقد اختلف فقهاء المسلمين فى جواز قتل الأسرى من غير مشركى العـــرب ، فلم يجزه من أجازه منهم الا لحسم مادة الفساد ، أن خيف ألا تحسم بغير

هذه الذريعة • وقد كانت مادة الفسـاد فى أعقاب الدولة الساسانية خليقة ـ ولا نكران ـ بضربة من أمثال هـذه الضربات ، فقد أعيت فيها الحيلة من دعوة واقناع ومصابرة، وكانت النكبة بدوام هذه الدولة أشد على الفرس أنفسهم من نكبة القتلى فى تلك المعركة الشـعواء ، وهى فى غرابة صروفها أدنى أن تحسب من معـارك الأقدار ، وتلك هى المعـارك التى يرآد فيها الغالب والمغلوب على الأمر ، ولا يريدان فيه

وقديما علمنا من طوارق الحرب والسلم أن الشر المحض والخير المحض فى هذه الدنيا عزيزان او مستحيلان • فهذه النقمة الخالدية جاءت على غير المألوف فى حـروب صـدر الاسلام ، ولكنها عجلت بختام عهـد موبوء كان لابد له من ختام ، فخلعت القلوب وصكت الركب وزلزلت سـلطان الطغاة فى بلاد الفرس بل فى بلاد الروم ، وكان من جرائها أن الأمصار التى كانت تفزع من حصـار خالد لها كانت تلقى بأنفسها فى أحضان غيره من قادة المسـلمين ، كما أسرع أهل دمشق الى ابن الجراح يلتمسون مصالحته مخافة الفتح عنوة على يد ابن الوليد

▭

كانت هذه الوقائع تتوالى يوما بعد يوم وتتـوالى معها البرد الى المدينة بأخبار النصر وغنائم القتـال ، فلا يفرغ الناس من حديث بريد حتى يتبعه ما وراءه بنصر جديد • وسـبقت ضربات خالد كل آمال الآملين فى سرعة الظفر بدولة الأكاسرة • فقال أبو بكر وهو يبلغ الناس أنبـاء الظفر ليزفوا بشراها الى الجزيرة العربية : «يا معشر قريش! عدا أسدكم على الأسـد فغلبه على خراذيله ••• أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد ؟ »

ثم سلمت الحيرة ـ بلد النعمان وموئل نابغة بنى ذبيان ـ فكان لتسليمها صدى بين أبناء العروبة لا يعدله صـدى الفتح فى بلد من البلدان ، لأنها كانت فى عالم الشـعر والبلاغة حديثا على كل لسان

الا أن الخليفة الذى عرفناه رجلا حصيف الجرأة ، جرىء الحصافة، لم ينس اليقين مع الحيطة ولم ينس الحيطة مع اليقين. وأدركه الحذر فى هذه المرحلة من مراحل الحرب فجنح الى الأناة والتريث وأخذ بعنـان خالد فلم يأذن له أن ينطلق وراء الحيرة حتى يوافيه زميله عيـاض بن غنم ويأمن كلاهما من ورائهما غدرات الطريق . وحجة الخليفة فى ذلك أظهر من أن تخفى . فمن تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم فى الشام من اليسار . ثم ان السواد نفسه اقليم حديث العهد بالاسلام لم ترسخ فيه قدمه ولا يؤمن تركه والتطوح بعده الى حمى الدولة الفارسـية فى عواصمها من وراء النهرين ، وقد نمى اليـه ولا شك أن فلول العـرب المهزومين هجروا حوض العراق وأوغلوا فى الصـحراء الى دومة الجندل يتجمعون ويتربصون ، وفى الشـام أراجيف عن تعبئة القيصر لجيوشه لا تغمض عنها العيون قبـل أن تستقر الطرق وتتمهد مواطىء الفتوح ، فان لم يخرج عياض ابن غنم من معاقل دومة الجندل بين العراق والشـام مالكا زمامها وزمام ما حولها فكل خطر هنالك محتمل، وكل عجلة قد تجر الى وبال

ولكن الفرس الكريم الذى يحبس فى الحلبة يعـانى من أمان الحبس ثقلة لا يعانيهـا من تعجل العواقب ومكافحة الاخطار . فحز فى طبع خالد جذب العنان وأقام فى انتظار زميله قرابة عام وهو يسميه «سنة نساء !» ولو كتب لرجل غيره أن يظفر فى هذه السنة « المستريحة » بمثل ما ظفر به لارتضاه لنفسه سجل عمر كامل ، لانه خاض ثمانى وقائع

فيما يليه من البلاد لم يحسبها وقائع تحصى ! وله فى كل وقعة منها نصر يعتز به قائد فخور

وقد عرضت لخالد فى هذه السنة وما قبلها عوارض شتى تدخل فى الحساب أو تأتى من هنا وثم على غير حسبان • فتصرف فيها جميعا تصرف الرجل الذى خلقَ للتقلب فى أجواء الحرب كما خلق السمك للتقلب فى الماء ، فلا تفجؤه حالة من حالاتها بما يربكه أو يعييه

البدوى لا عهد له بسفينة غير سفينة الصحراء ـ وهى الجمل ـ ولكن خالدا غنم السفن الفارسية بعد وقعة أليس فأركب جيشه فيها ليكفيه ويكفى مطاياه مشقة المسير • فلم تنقله السفن قليلا حتى جف الماء ولصقت بالقاع ، لان الفرس تسامعوا بمسيره فى النهر فأوصدوا قناطر الحيرة وحبسوا الماء عن مجراه•ولو بدوى غير هذا البدوى فوجىء بهذه الحيلة الحضرية وهذه « اللعبة الهندسية » لوقع فى حيص بيص وترك السفن فى قاعها ورجع الى مطاياه ••• ولكنه أبى الا أن يبلغ بالسفن الى حيث شاء • فانبعث فى نفر من أصحابه كالبزاة الى القناطر وأطلقوا ماءها ولبثوا هناك فى حراستها وفى انتظارالسفن التى ارتفعتبراكبيها كأنهم يشهدون غريبة من غرائب السحرة تعبث بالسفينة بين بر يابس ونهر غزير

وحفروا له فى الانبار خندقا ثم احتموا وراء الخندق بحصن ينظرون اليه من أعلاه، كأنهم يهزأون بهويستعجزونه أن يعبر الخندق وأن يفلح فى علاج الحصن اذا وصل اليه • فلم يلبث أمام الخندق كثيرا ولا قليلا بل أمر لتوه بنحر الابل العجاف وألقى بها فى الخندق فسدته ودعا جيشه الى العبور عليها • فأصبح من فى الحصن سجناء فى يديه ، وتوسلوا اليه أن يرسلهم فى سبيلهم مجردين من السلاح

والمتاع ، وهم يحمدون الله على اِلنجاة من يوم كيوم أليس. فأجابهم الى ما طلبوه

وعلم أن عقة بن عقة يحشد له فى عين التمر حشودا من تغلب واياد واصحاب المتنبئة سجاح ، ويوهم الفرس أنه ند للعرب لانه أخبر بهم من غـــيرهم ... فوثب على معقله بالصحراء وهو كدأبه عـلى تعبئة كاملة ، وبصر بعقة حين دنا من الموقع فقال لصـــحبه : اكفونا ما معه فانى حامل عليه بنفسي . ثم احتضنه وحمله أســيرا وهو لا يتوقع أن يؤخذ من أساليب القتال العربى بهذا الاسلوب العجيب فى كل قتال .! وقد كان خالد يعمد اليه كلما بدا له أن يوجز فى الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم، فيصيب ما أراد

وأعطى الدعوة حقها كما أعطى القتال حقه فى كل معركة بما تقتضيه وتوحيه اليه

فكان اذا لقى العرب سألهم مذكيا فيهم نخوة العروبة : « ويحكم ! أأنتم عرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ »

وكان يعين الحمية الدينية فى جيوشه بما يغرى النفوس من نعيم الدنيا ومتاع الحياة . فاباح الأســلاب من سلبها بالغا ما بلغ قدرها ، وربما قسم للمقاتل الواحد فى بعض الوقائع الف دينار فلا يستكثرها عليه ولا ينتزع منه غنيمة وقعت فى يديه . وقال لهم يوما بعـــد وقعة المذار : « ألا ترون الطعام كرفغ التراب ؟ والله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء الى الله عز وجل ولم يكن الا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هـــذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والاقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه »

وأحكم الصلح كما أحكم الحرب فكان عهده مع أهل الحيرة نموذجا للعهود من قبيله ، وكان يصالح المستسلمين صلح

من يعنى كل حرف يخطه بيمينه فلا يزيد ولا ينقص • قال فى عهد أهل الحيرة : « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد•• نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحـــيرة وأمروهم به : عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء على أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسسهم الا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيـــا تاركا لها • وعلى المنعة ، وان لم يمنعهم فلا شىء عليـــهم حتى يمنعهم • وان غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة ••• وكانت كتابة هذا العهد فى شهر ربيع الاول سنة اثنتى عشرة هجرية »

▭

وعلى قدر سطوته الجائحة بمحـــاربيه ومعانديه كانت رعايته ورفقه بأولئك المظاليم الخالدين منزراع تلك البلاد• فللمرة الاولى فى التاريخ من قبل بابل ونينوى رأى فلاحو السواد حاكما يحفظ لهم غلاتهم وينصفهم من دهاقينهم ــ أو مستغليهم ــ ويستمع شكاية ضعيفهم من قويهم ويشرع بينهم شرعة المساواة والأمان • وبلغ من رفق الحكم الجديد برعاياه مسلمين وغير مسلمين أنه تكفل بالعبـــد اذا تحرر وبالغنى اذا إفتقر وبالعائل اذا انقطع عائلوه • وهذا مثل مما تكفل به الحكم الجديد فى كتـــاب خالد • قال : « انى دعوتهم الى الله والى رسوله فأبوا أن يجيبوا،فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا لا حاجة لنا بحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب فى اعطاء الجزية • وانى نظرت فى عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل ، فأخرجتهم من العدة• فصار من دفعت عليه الجزية ستة آلاف فصالحونى على ستين ألفا وشرطت عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والانجيل ألا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم

من العرب ولا من العجم ولا يدلوهم على عورات المسلمين : عليهم بذلك عهد الله وميثاقه • ان أخذه أشد ما أخذه على نبى من عهد أو ميثاق أو ذمة ، وان خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان ، وان هم حفظوا ذلك ووعوه وأدوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم • فان فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا • وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام • فان خرجوا الى غير دار الهجرة ودار الاسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم ، وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم فى أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم فى غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه الى صاحبه • ولهم كل ما لبسوا من الزى الا زى الحرب • من غير أن يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم ، وأيما رجل منهم وجد عليه شىء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك • فان جاء منه بمخرج والا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب • وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه الى بيت المسلمين ، عمالهم منهم•فان طلبوا عونا من المسلمين أعينوا به ، ومؤنة القواد من بيت مال المسلمين »

وقد عزلت هذه الرعاية من جانب وتلك السطوة من جانب آخر عزلا فاصلا بين الرعاة والرعية فى السواد وفى الديار الفارسية ، فنظرت الدهماء الى الحرب كأنها حرب على الرعاة وحدهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل•فلا هى تعنيهم ولا هم يخشون من عواقبها العاجلة أو الآجلة•بل هم بهذه العواقب ينعمون واليها يتشوفون

وكانت «وقعةالفراض» آخر أعمال خالد الكبار فى العراق

وأوفاها دلالة على عجز الدولتين معا : دولة الفـرس ودولة الرومان الشرقية • عدا ما فيها من الحوادث التى هى أصلح ما تكون للتفرقة بين مغبة العمل الواحد تأتيه الأمة فىعهد اقبالها وتأتيه الأمة فى عهد ادبارها • فهو ضربة موت من ناحية وهو من الناحية الاخرى كالضربة التى تشحذ عزيمة المضروب وترد التوازن اليه

«الفراض» فى أعلىالعراق بين مسالحالفرس والرومويوشك هؤلاء وهؤلاء فيها أن يتناظرا متقابلين ، وقد هبط عليهـا خالد فى وثبة من وثباته فتألب عليـه هنالك عرب البادية وجيشالروم وكان وشيكا أن يتألب معهم جيش من الفرس لولا ما شغلوا به من أمر العرش ووراثته والمتنازعين عليه• وقال الروم لخالد كما قال الفرس بعد ذلك لأبى عبيـدة : اما أن تعبروا الينا واما أن نعبر اليكم • فلم يصـنع خالد صـنيع أبى عبيدة بل قال لهم : اعبروا أنتم ان شئتم • وتركهم حتى يعبروا ليحصرهم بينـه وبين النهر فلا يهرب منهم هارب ، وأرسل الفرسان والرامحين ليعزلوهم قطيعا قطيعا ويضيقوا عليهم مسالكهم • ثم يحصدوهم حصـدا وهم أشبه بالمحكوم عليهم فى ساعة التنفيذ منهم بالمقاتلين

على أنه لم يثب على الفراض وثبتـه تلك حتى كان قد « طهر » جوف الصحراء من جموع الاعراب التى تكوفت الى دومة الجندل وعوقت عندها زميله « عياضا » قرابة عام • فلما ترامت أنباء فتوحه الى عياض كتب اليـه يستشيره ويستنجده • فكان هو عـلى عادته أول جواب بعـد رجع الخطاب ، وكتب اليه يقول :

لبث قليـلا تأتك الجلائب يحملنآسادا عليها القاشب (١)
كتائب تتبعها كتائب

---

(١) السيف اللامع القاطع

وكانت تفصله من دومة الجندل مسيرة أسبوعين فقطعها هو فى أقل من عشرة أيام ، ووجد حصن الدومة مكتظا بمن فيه وحوله زرافات ضاق بها الحصن فعسكرت بالعراء، فجعل القوم جميعا بينه وبين عياض • وتولى عياض حرب من قبله فهزمهم لما جاش فى نفسه من نخوة المنافسة وما جاش فى نفوسهم من الوجل والحيرة • وتدافع المنهزمون الى الحصن يريدون بابه فسبقهم خالد اليه وانتزعه وحال بين النازلين فى الحصن ومن حوله • ثم استبى كل من أصابه من رجال ونساء • ومن هؤلاء السبايا ابنة الجودى بن ربيعة استباها خالد لنفسه وقيل انه اشتراها • ثم بنى بها وأقام معها فى دومة الجندل أيام مقامه فيها

وكان أهل الدومة قد عاهدوا المسلمين غير مرة ونكثوا بعهودهم فأمعن القتل فيهم وجعلهم نكالا لغيرهم • ثم قفل الى العراق وهو مطمئن الى غزوة الفراض بأعلى الفرات • فغزاها وفرغ منها كما تقدم • وبقيت له فى العراق عزمة خالدية أخرى ولكنها من نوع غير هذا النوع • فلم يلبث أن قضاها

بقى على موسم الحج أسبوعان وهو أول حج حان بعد تلك الغزوات المتلاحقات اللاتى أمده الله فيها بنصره وعونه

أيفوته قضاء الشكر فى هذا الموسم وأداء الفريضة فى موعدها ؟ ولم ...؟ الخوف من الأعداء ؟ العائق من بعد الشقة ؟ العذر من الاعذار التى يعتصم بها القاعدون عن الحج برخصة من الفقهاء ؟ كل أولئك عوائق لا يستهان بها ولكنها خلقت ليذللها لا لينكص عنها • ففى خطفة الريح العاصفة خرج من أعلى العراق الى أقصى الحجاز وأدى الفريضة وعاد الى معسكره دون أن يعلم أحد من الأعداء ولا من المسلمين الا أقرب خاصته المقربين ، بل دون أن يعلم الخليفة نفسه وقد كان على الحج فى ذلك العام

ويروق بعض المؤرخين أن يحسب هذه العزمة الخالدية من مغامراته التى تنم عن فرط الثقة بنفسه ولا تنم عن شىء غير ذلك ، ولكنها فى الواقع دلت على ثقته بغيره كما دلت على ثقته بنفسه • فقـــد علم أن معه بالجيش من فيه غنى وكفاية اذا جد فى غيبته طارق داهم أو خطر حازب •وكفى بالمثنى رائده المقدام ، وبالقعقاع صاحبه القديم وموضـع ثقته الحميم

فى حرب الروم

علم الخليفة بمغامرته هذه فجاءه منه ملام ، واعجـاب ، وتكليف ، ووصاة : أمره بحرب الدولة الرومانية بعد هذا الفوز الذى أصابه فى حروب الدولة الفارسية ، وان يسارع الى مرضاة الله وقتال أعداء الله ، ويكون كمن يجاهد فى الله حق جهاده

وقال له : « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا واشجوا • واياك أن تعود الى مثل ما فعلت ،فانه لم يشج الجموع من النـاس بعون الله شجيك ، ولن ينزع الشجى من الناس نزعك• فليهنك أبا سليمان النية والحظوة• ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، واياك أن تدل بعمـل فان الله له المن وهو ولى الجزاء »

وكتب الى أبى عبيدة فى الشام يخبره بمقدم خالد اليه، ويقول له فى كلام صريح : « سلام الله عليك • أما بعد فقد وليت خالدا قتال العدو فى الشام ، فلا تخالفه واسمع له واطع• فانى لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيرا منه،ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك • أراد الله بنا وبك خيرا والسلام »

فأرسل خالد الى أبى عبيدة رســولا يبلغه قبل مقدمه

بكتاب يقول فيه : « أتانى كتاب خليفة الله يأمرنى بالسير الى الشام ، وبالقيام على جنـــدها والتولى لأمرها • والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته اذ وليته • فأنت على حالك الذى كنت عليه لا نعصيك ولا نخالفك • ولا نقطع دونك أمرا • فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك »

وأول خاطر سبق الى ظن خالد حين حـــوله الخليفة من حرب فارس الى حرب الروم انه عمل من أعمال « الأعيسر» كما يسميه ويعنى عمر بن الخطاب ، وانه نفس عليـــه أن ينفرد بفتح فارس فأرسله الى ميدان له فيه شركاء من أعلام الصحابة ذوى الخطر والسابقة الملحوظة بين المسلمين

وهو ظن بعيد يخطر على بال خالد لانه يتوقع شيئا من صوب عمر ولكنه لا يخطر على بال غيره • اذ لا ينفس عمر على خالد أن ينفرد بغلبة الفرس ثم يرسله ليغلب الروم بعد أن تأخر الفتح على أيدى كبار القواد من أجلاء الصحـابة • فهذا مزيد من الفخر يتطاول اليه المتطاول وليس بنقص منه يتعمده لخالد من يأباه عليه • وانما اختار الخليفة خالدا لان العراق كانت فى هدأة من جانب الفرس بعد هزائمهم الكثيرة، وكان فى جيش المسلمين وقواده بالعراق كفاية للمثابرة على الفتح بعد أن تم التدويخ والتمهيد ، ولأن خالدا كان أقرب مدد الى الشام ولم يكن بالحجاز بقية من قوة فاضلة تضاف الى قواتهم فى حرب الرومان • فاختاره الخليفة وهو يقول : « لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »

وليس من عادة خالد أن يضيع وقتا قل أو كثر اذا نيط به أمر من الأمور • فلما ندب للجهاد بالشام نظر فاذا بينه وبين الشام يومئذ من خمسمائة الى ستمائة ميل على حسب

الطرق التي يسلكها ، وهى أربع يختار منها أصلحها لانجاز العمل الذى وكل اليه

من هــذه الطرق الأربع ما هو سهل موفور الماء والكلأ ولكنه من أجل هذا موفور الحراس والسكان ، فهم يعوقونه بالمقاومة عن الاسراع المطلوب دون أن تكون للغلبــة عليهم فائدة تذكر فى القتال الحاسم بين المسلمين والرومان

ومنها ما هو قليل الحراس والسكان وفيــه الماء والكلأ ولكنه بعيد يطول السير فيه

ومنها ما هو وعر قليل الماء والكلأ مخيف غير مطروق ، أو كما قال الدليل الذى سأله خالد : « انك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال . والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه، وما يسلكها الا مغرور . انها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلتها ... »

وأيسر شيء على القارىء الذى عرف خالدا أن يعلم أى هذه الطرق يسلكه خالد . فما هو بسالك حيث سلك الا الطريق الذى هو أحوج الى قدرة القائد وأدل على العزمة والمضــاء وأبعدها جميعا أن يتوقع العدو هجوما منه . فأجمع عزمه على طريق من الطرق الأربع هو أصــعبها وأقصرها ، وهو الذى خوفه الأدلاء منه ، وقال لدليله الأكبر رافع بن عميرة الطائى ــ ولا أحد يغنى غناءه فى السير بتلك المفازة المهلكة وان كان يومئذ من حسر النظر كالمكفوف الضرير ــ :

« ويحك انه والله ان لى بد من ذلك ... ان القوة تأتى على قدر النية وان المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله »

ويروى الرواة أن الدليل قال لهم بعد ذلك : « اكثروا من الماء . من استطاع منكم أن يصراذن ناقته على ماء فليفعل، فانها المهالك الا ما دفع الله »

ثم قال لخالد : « ابغنى عشرين جزورا عظاما سمانا مسان » فأتاه بهن · فظمأهن حتى اذا أجهدن عطشا أوردهن فشربن ، حتى اذا تملأن عمد اليهن فقطع مشافرهن ثم كعمهن لئلا يجترزن

واشار على خالد أن يقتطع أربعا من هذه الجزور كلما نزل ليسقى الخيل ، وأن يشرب الجند مما حملوا من الماء · ففعلوا ما اشار به حتى كان آخر يوم فى المفازة فقال له خالد : ويحك يا رافع ما عندك ؟ فأرسل رافع جماعة ينظرون شجيرة من عوسج فى موضع كان يعهدها فيه ويعهد فيه الماء على مقربة منها · فلم يجدوها · فصاح الرجل بالويل واسترجع قائلا : « هلكتم والله اذن وهلكت لا أبالكم · انظروا انظروا » فلما نظروا وأنعموا النظر رأوا جذرا قد بقى منها وقطع سائرها · فكبروا فرحا وشكرا وحفروا فى أصلها فنبع لهم الماء ، فشربوا ونجوا من هذا الخطر الأليم الذى دونه كل خطر من لقاء الأعداء

وفى ذلك يقول أبو أحيحة القرشى :

لله عينا رافع انى اهتدى
فى مهمه مشتبه الى سوى
والعين منه قد تغشاها الردى
معصوبة كأنها ملأى ثرى
فهو يرى بقلبه مالا يرى
من الصوى تترى له بعد الصوى
فوز من قراقر الى سوى
والسير زعزاع فما فيه ونى
خمس اذا ما سارها الجيش بكى
فى اليوم يومين رواحا وسرى
ما سارها من قبله انس يرى
هذا لعمرى رافع هو الهدى

وسواء صحت رواية الجزور المظمأة أو كان فيها شيء من توسع الخيال فالطريق الذى سلكه خالد معروف والقـــدرة عليه هى موضع العبرة والتأمل فى هـذا المقام . أما نحن فالذى نراه أن خالدا لم يكن لينتظر حتى تظمأ الابل وهى لا تجهد من الظمأ الا فى أيام ، وأن الابل لا تخزن الماء فى جوفها وان لم تجتره دون أن ينصرف منهـا ، وان عشرين جزورا تمتلىء كروشها بالماء لا تسقى الخيل فى الجيش كله وعدته عشرة آلاف . فلابد من تدبير آخر مع هـذا التدبير تجتمع فيه السرعة الى التخفف الى الاقدام

والأمر الذى لا شك فيه بعد هذا كله أن خالدا ســـار بجيشه ـ وعدته عشرة آلاف ـ من عين التمر الى قراقر ، ثم من قراقر الى سوى وبينهما تلك المفازة المهلكة ، ثم الى تدمر فالغوطة فبصرى ، فقطع هذه المسافة فى ثمانية عشر يوما لأنه كما قال الشـاعر كان يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد :

« فى اليوم يومين رواحا وسرى ! »

خرج من الحيرة فى أوائل صفر من ســـنة ثلاث وعشر للهجرة ، وطوى تلك المسافة فى تلك الايام بعد أن قمع كل مقاومة لقيها من المسالح والحصون وراء المفازة الخاوية من كل ديار

واتفق خروجه من الحيرة وجيوش المسلمين فى الشـــام تشرع فى خطة جديدة للتراجع الى الجنوب وملاقاة الجيوش الرومانية الجرارة فى جمع واحـــد ينهض لها ويحول دون الاحداق بكل جيش منها على انفراد .

وكان الخليفة قد سيرها ـ بعيد منتصف السنة الثانية

عشرة للهجرة ـ مع أربعة من كبار القواد فى طرق مختلفة الى وجهات متعددة

فسير يزيد بن أبى سفيان على رأس ستة آلاف أو سبعة آلاف الى دمشق ، وسير شرحبيل بن حسنة على مثل هـذا العدد الى الأردن ، وسير عمرو بن العاص على رأس جيش يزيد على ذلك قليلا الى فلسطين ، وسير أبا عبيدة بن الجراح على رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف الى الجابية ، وأمدهم بعكرمة بن أبى جهل فى جيش صغير ليحمى ظهور من يحتاج منهم الى الحماية ويسرع بالنجدة الى من يطلب منهم المعونة

ولا نعلم على التحقيق حكمة التفرقة بين هذه الجيوش فى طرائقها ووجهاتها ، ولكنها على ما يظهر مسألة الماء والكلأ من جهة ، ثم رغبة الخليفة فى تشتيت جموع الروم وتوزيع أغراضها ، ولا يخلو الأمر من الحيطة لمنع الالتفاف بالجيش الواحد اذا أوغل فى البلاد كما حدث قبيل ذلك لجيش خالد ابن سعيد ، فان الجيوش الاربعة يكون كل منهـا مددا لصاحبه ومانعا للالتفاف به أو منقذا له من الالتفاف اذا وقع فجاءة • وهذا مع علم الخليفة يومئذ بتفرق الحاميات الرومانية فى مواقع البلاد الداخلية • اذ كان الرومان على ما يظهر قد اطمأنوا من جانب الفرس بعد انتصارهم عليهم، واطمأنوا من جانب العرب بعد رجوع حملاتهم الثلاث على النحو المعروف ، وهى حملات مؤتة وتبوك وجيش أسامة ، وزادهم اطمئنانا أنهم غلبوا الحملة الرابعة وهى حملة خالد ابن سعيد ، وأنهم عرفوا اشتغال العرب بحرب الفرس فوقع فى روعهم أن العرب أضعف من أن يشغلوا أنفسهم بحرب دولتين عظيمتين فى وقت واحد•فمن هنا خلت ربوع الشام من جيش كبير للرومان ، وعلم الخليفة ذلك فاعتقد أن تفرقة الجيوش فى زحفها الى الشام أقرب الى توزيع العمل والاسراع فيه ، فان تغير الموقف وعمد الرومان الى حشد

الحشود الكبيرة فقد أوصى القادة بالتشـــاور والتعاون فى مقابلة هذه الطوارىء ، كما أوصاهم بالرجوع اليه

وقد نجحت هـذه الجيوش فى وجهاتها وتقدم بعضها الى دمشق وبعضها الى حمص وأوغل بعضها الى فلسطين

ثم نمى اليهم أن القيصر يســـتعد لهم بجيش كبير فى انطاكية وجيش آخر فى جوار بيت المـقدس ، وبلغت عدة الجيش الاول على تقدير بعض المؤرخين مائتين وأربعين ألفا، وعدة الجيش الثـانى سبعين ألفا أو نحو ذلك ، ولو نزلنا بعدة الجيشين الى النصف حسبانا للمبالغة وجهل الحقيـقة لما كان نصف هذا العدد بالشىء القليل ، لأنه يربى عـلى ثلاثة أضعاف الجيش العربى كله بعد قدوم جيش خالد اليه، ولم يرتفع به أحد الى ما فوق الخمسين ألفا على أعظم تقدير

فتشاور القواد فيما يصنعون،فاستقر رأيهم على التراجع الى الجنوب ليتجمعوا قبـــل أن يتلاقى الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم وهم متباعدون متفرقون كل منهم فى بضعة آلاف

ولعلهم يصبحون فى تراجعهم أقرب الى الأمن اذا حاربوا وظهورهم الى الصحراء ، وقد علموا بالأمثـــلة الكثيرة أن الجيوش الرومانية تحجم عند حدودها ولا تجسر على خوضها فى أعقاب جيش كبير أو صغير

والمؤرخون مختلفون فيمن هو صـاحب المشورة الأولى بالتراجـع الى الجنوب ، فمنهم من يقول انه أبو سفيان بن حرب ومنهم من يقول انه عمرو بن العاص • وهـذا القول الاخير أدنى الى الواقع لأن عمرا كان يتراجع فى الجنوب قبل أن تصل الجيوش الاخرى اليه ، وكان من الموافق لخططه أن توافيه الأمداد فى ميدانه بفلسطين

وأيا كان صاحب الرأى الاول فى هـذا فقد تم التراجع باقرار الخليفة وكان شعوره بحرج المسلمين فى أماكنهم هو

الباعث له أن يستدعى خالدا من العراق الى الشام • فكتب لقواده بالشام يقول : « اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحـــدا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فانكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وانما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف اذا أتوا من تلقاء الذنوب • فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه »

▭

ومن المتعذر جدا تمحيص التواريخ فى ترتيب الوقائع بعد وصول خالد الى الشـــام • ولكن الأرجح فيما نرى أن المعركة الأولى بدأت مع الجيش الأصغر فى « أجنادين » بالجنوب • لان البدء بأصغر القوتين واخلاء الجنوب قبـــل الانتقال الى الشمال أولى وأوفق من ترك هذا الجيش الاصغر وراء ظهور المسلمين ومواجهتهم الجيش الاكبر بين عدوين • ولأن معركة أجنادين لم يشترك فيها معظم القواد المسلمين• مما يرجح أنها وقعت بعد المعركة الكبرى فى اليرموك لما كان مفهوما أن يترك أولئك القـواد جيشا كجيش الرومان فى فلسطين دون أن يتعقبوه جميعا ، مع فراغهم من أسر الجيش الكبير فى اليرموك

وعلى أية حال هزم الروم فى أجنادين وكانت الوقعـــة الحاسمة بينهم وبين المسلمين فى اليرموك ، عـــلى اختلاف كثير فى التواريخ ، واتفاق فى تصوير خطة القتال

ويحسن بنا قبل أن نستطرد الى الكلام على المعركة أن نجمل حالة الجيشين المتقاتلين عند اللقاء

فالجيش الرومانى كان أوفر عددا وأكمل عدة بغير خلاف، ولكنه خليط من عناصر عدة منها الروم والأرمن والعـرب

وأجناس أخرى ، وقد يظن لأول وهلة أنه امتـــاز بالنظام والخطط الفنية على أعدائه ، ولكنه فى الحقيـــقة كان أبعد الجيشين عن النظام الصحيح اذا أردنا بالنظام وحدة الحركة والتوجيه • لأن المتطوعين فيه من أبنـــاء القبـــائل كانوا يحاربون على ديدنهم والجنود النظاميين يحاربون على ديدن آخر،وتعوقهم العدد الكثيرة والشكك السابغة التى حسبت من مزاياهم ، فهى الى النقص هنا أقرب منها الى المزية

وقد أثيرت فيهم حمية الدين ولكنهم ثاروا لها متشككين متفرقين ، وجعلتهم حماستهم الدينية يترقبون من الله عقابا ينزله بهم على خطاياهم وخطايا قيصرهم ورؤسائهم المتهمين عندهم بالزيغ ومطاوعة الشيطان • فحمية الدين تثيرهم من ناحية وتضـــيرهم من ناحية ، وليست هى من قوة اليقين المكين

أما جيش العرب فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيـــدة واحدة وترجع الى قيادة وآحدة ، وفى صدورهم من حميـــة القتال كل ما يحفز القلب الانسانى الى الثبات والاستبسال: غيرة على الدين وغيرة على العرض وناهيك بالغيرتين ، ويقين من نعيم الآخرة ونعيم الدنيا إذا كتب له الفـــلاح ، وكفى باغراء النعيمين

كان فى جيش المسلمين أصون كرائم البيوتات القرشية: بنت أبى بكر وأم معاوية وزوج عكرمة بن أبى جهل وعقائل أناس من الجند والقادة • وقد أمرهن أبو عبيدة قبل المعركة « أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت وآلخيام ويجعلن الحجارة بين أيديهن • فان كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه وان رأين أحدا من المسلمين منهزما ضربن وجهه بأعمدتهن وأرجعنه بحجارتهن ، ورفعن اليه أولادهن وقلن له قاتل عن أهلك وعن الاسلام » ولم يقنع خالد بهـــذا بل قال لهن : يا نساء المسلمين ! أيما رجل أقبل عليكن منهزما فاقتلنه !

ومن أجل هـذا لا نعجب أن يكون هرقل قد وزن القوى وفكر حقا فى عرض الصلح على المسلمين وقال لبطانته وذوى شوراه : « لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتاخذوا نصفه وتقربوا من جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم عـلى الشام كلها ويشاركوكم فى جبال الروم» ولكنهم استضعفوه وكبر عليهم أن يجيبوه

أما المسلمون فالصلح الذى فكروا فيه قبـل القتال هو الصلح على شرطهم المعلوم : الاسلام أو الجزية ، فان لم يقبل شرط من الشرطين فالحكم للسيف

وقد أفادهم عرض هذه الشروط قوة على قوة وزادهم فى نفوس أعدائهم مهابة على مهابة • فلما ذهب وفدهم يعرض هذه الشروط قبل القتال على القائد تيودور ـ أخى القيصر ـ حسب هذا أنه يهولهم بالبذخ والثراء ويكسر نفوسهم بما يريهم من حلل الأبهة والنعيم • فأقام لهم سرادقا من فاخر الحرير يستقبلهم فيه ••• فوقفوا عنـــد بابه ولم يدخلوه قائلين : « ان ديننا يمنعنا أن نفترش الحرير والديباج »

فهالوه بزهدهم أكثر مما هالهم بترفه • وأعسر شىء على جنوده بعد ذلك أن يؤمنوا حق الايمان أنهم ـ وهم الغارقون فى المناعم واللذات ـ يقاتلون فى سبيل الله قوما هذا مبلغ زهدهم فى المناعم واللذات، وهذا مبلغ استعلائهم على الدنيا وما تبسطه لهم من غواية

□

ولم يخف على أحد من قادة الرومان والعرب خطر المعركة الكبيرة التى هم مقبلون عليها : هى معركة فاصلة فى مصير الشام ما فى ذلك ريب • وقد تكون المعركة الفاصلة أيضا فى مصـــير الدولة الرومانية ومصير الأمة العربية • فان

هزيمة الدولةالرومانية فيها تنزع من يدها الأماكنالمقدسة ويعقبها ضياع مصر وثورة المتربصين بالقيصر وأهل بيته فى بلاده الأسيوية والأوربية • وان هزيمة الجيش العربى معناها هزيمة الجيش الأكبر الذى لا يتسع الوقت ولاتتسع الطاقة لتجريد جيش غيره عـــلى أثر الهزيمة ، وقد تغرى القيصر الروماني بارسال قبائل الشام فى أعقاب المسلمين الى الحجاز والجزيرة العربية ولا يبعد أن تثير أبنـاء الجزيرة العربية أنفسهم على خليفة الاسـلام ممن لا تزال لهم ترات تغلى فى حنايا الصدور

فاستعد الفريقان غاية ما فى الوسع من استعداد

وارتضى كلاهما موقع اليرموك للوقعة الفاصلة بينهما • لأنه يوافق طلبة القيصر من مكان « واسع العطن واســـع المطرد ضيق المهرب » ولا يكرهه المسلمون لأنهم رأوا منزل الروم فيه منزل محصور بينالنهر والبحيرة والوادىوجيش المسلمين • أو كما قال عمرو بن العاص حين رآهم : « أيها الناس ! أبشروا•••حصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير »

تحاجز الجيشان أشهرا لا يشتبكان الى جمادى الآخرة أو رجب على قول بعض الرواة

وكلاهما ينظر كيف يبدأ الآخر هجومه ليرتب له لقاءه، وكلاهما قد عبأ طاقته من ســـلاح الأيدى ولم يزل يعبىء طاقته من سلاح النفوس : سلاح العقيدة والفداء

واستعان الرومان بالقسيسين يلهبون الحميـة ويضرمون الحفيظة ، ويهونون على اتباعهم بذل الأرواح فى سبيلالملة والدولة والمجد القديم

وأقبل المسلمون علىالقرآن يرتلونه وعلى العظات يذمرون بها القلوب ، وجعلوا وراءهم حرسا من الأعراض هو أقوى الحراس بعد الايمان

ثم كثرت الحركة أياما فى جيش الروم فعلم القادة المسلمون أنهم مقتربون من الهجوم ، ولم يشأ خالد أن تبتدىء المعركة بقيادة متفرقة لا تتحد فى نظام واحد . فصرف همه الأول الى تنظيم الفرق جميعا فى تعبئة واحدة يقودها رجل واحد ، ووجد من زملائه قلوبا مصغية فأجابوه الى ما دعاهم اليه

قال لهم قبل ابتداء القتال : « هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى : اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فان هذا اليوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم متساندون . فان ذلك لا يجمل ولا ينبغى ... وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى »

ثم قال وقد سألوه رأيه : « ان الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم . فالله الله !.. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عندالله ولا عند خليفةرسول الله : هلموا! فان هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده . ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا فلنتعاور الامارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعونى اليكم اليوم»

فأسندوا اليه قيادتهم يومها ، وكان توحيده القيادة أول خطوة فى طريق النصر الحاسم بمعركة اليرموك

ثم أسرع الى تعبئة قواده وجنوده على الوضع الذى رآه ملائما للتعبئة الرومانية ، وهو الوضع الملائم للحرب « فى العمق » كما يقول العسكريون فى هذه الايام

فأقام عمرو بن العاص على الجناح الأيمن ، ويزيد بن أبى سفيان على الجناح الأيسر،وأبا عبيدة بن الجراح على القلب. واتخذ مكانه فى كبة الجمع ، ولجأ الى طريقته التى اختارها

لحرب بنى حنيفة وهى طريقة الكراديس ، لأنها أصلح الطرق للنفاذ فى الصفوف،وأدعاها الى التنافس بين المقاتلين وتمييزهم بالتبعة أو بالثناء

وكانت كل فرقة من الميمنة أو القلب أو الميسرة تتألف من كراديس عدة على كل منها قائد معروف ، ومنهم صاحبه القديم القعقاع ، وزميله فى حرب اليمامة عكرمة بن أبى جهل وزميله فى دومة الجندل عياض بن غنم ، وابنه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشرين ، وجملة الكراديس جميعا ثمانية وثلاثون معظمها فى القلب ، وعدته ثمانية عشر كردوسا ، رئيسهم أبو عبيدة وفيهم عكرمة والقعقاع

وكان موضع الميمنة بحيث يستطيع الالتفاف بالجيش الرومانى اذا أمعن فى الهجوم والاطباق عليه مع القلب اذا ارتد الى الوراء

وفرغ من التعبئة فعمد الى « القوة الأدبية » يوليها حقها من عنايته الكبرى . وأخرج المقداد يقرأ على الجيش سورة الأنفال ، ودعى كل رئيس أن يعظ جنده ويبصرهم بمرماه فى حركاته ، وجماع هذه العظات خطبة عمرو بن العاص حيث قال : « غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، فاذا حملوا عليكم فامهلوهم،حتى اذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد ، فوالذى يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويجزى بالاحسان إحسانا ، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا وقصرا قصرا ، فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فانكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الحجول »

وخطب مثله معاذ بن أبى جبل وأبو سفيان،وبرز القعقاع وعكرمة قائدا المجنبة فى القلب يرتجزان،واختير يوم القتال فى يوم ريح سموم سافياء فى حمارة القيظ فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم .

ثم اشتبك الجيشان على نحو لا يعلم تفصيله على التحقيق، ولكنه بدأ كما تعودنا فى حروب المسلمين بهجمة شعواء من جانب العدو يتزعزع لها العدد الصغير أمام العدد الكبير ، ثم تكون الكرة الثانية لحميـــة العقيدة ومراجـعة الايمان والاعتصام بنية الفداء

فلما انكشف المســـلمون بعـد الهجمة الأولى ثابوا الى عزماتهم بنخوة الايمان ونخوة العـرض والأنفة • فضرب النساء فى وجوه الخيل قائلات : « الى أين يا حماة الاسلام وطلاب الشهادة!»•وصاح عكرمة كأنه يؤنب نفسه : «قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم ؟ من يبايع على الموت؟» فبايعه أربعمائة من الفرسان المغـاوير لا يقوم فى وجههم قائم،وصدموا الروم حتى صدوهم غير حافلين بما أصابهم، وقد قتل فى طليعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك الفرسان، ولم ينج منهم قط الا جريح مثخن بالجراح

وأفلحت الكرة الثانية ، وتقهقر الروم

وقد اهتم خالد بالعزل بين خيل العدووشاته،فتضايقت الخيل وعجزت عن الجولان وولت هاربة فأخلوا لها الطريق ، ورجع المشاة الى الخنادق فلحقهم بها المسلمونثم أحاطوا بهم من ورائهم فشاع فيهم الذعر وسقطوا وهم مولون مهرولون فى هوة الواقوصة أو وادى الرقاد • وقيـــل ان موتاهم بالواقوصة كانوا أكثر من قتلاهم فى حومة الوغى ، لأنهم قدروا بثمانين ألفا ســقطوا فى الوادى فرادى وجماعات • اذ كان بعضهم يقرنون أنفسهم فى السلاسل كل عشرة فى سلسلة واحدة تثبيتا لأقدامهم وتيئيسا من الفرار • فاذا بالوجل يفل حديد السلاسل كما فل عزائم القلوب • وبلغ اليأس مبلغه من أشراف القوم فقعدوا فى أماكنهم ينتظرون الموت • فكأنهم قد فروا قاعدين !

وحق لهرقل وقد حبطت محاولاته جميعا بعد اليرموك أن

يودع الشام الى عاصمة ملكه المتصدع وداعا كما قال ليس بعده لقاء

العزل

يستحق الرجل أن يسمى بطلا من أبطال التاريخ اذاكان له « دور تاريخى » يقضيه ويتسم بملامحه ودواعيه

وآية انقضاء ذلك الدور أن يبلغ البطل من الاعمـــال المقدورة له قمتها العليا التى لا قمة وراءها ، وأنه يعـــدو هذا الدور فاذا هو مفتئت على الآخرين ممن لهم حق مثل حقه فى أدوار التاريخ ، أو يعدوه الى أعمال يغنى فيهـــا الآخرون مثل غنائه ، وتدخل فى باب من السعى والدراية غير بابه

وقد بلغ خالد فى معـــركة اليرموك قمته العليـــا التى لا مرتقى بعدها لراق : قمع فتنة الردةوضرب دولةالأكاسرة ضربته الدامغة ووحد قيادة المســـلمين فى حرب الرومان فصدهم الى ما وراء حدودهم • وخلت ميادين الشام بعدها من أعمال يصح أن تسمى بالاعمال الخالدية•فهى بينحصار أو مراوغة أو تسليم • وانما يراد خالد لتحطيم قوى الاعداء التى تعز على التحطيم

وان يكن من عمل « خالدى » فى ميادين الشام بعدمعركة اليرموك فهو عمله فى مرج الروم • ثم عمله فى قنسرين

ففى مرج الروم كان هو وأبو عبيـــدة ينازلهما قائدان رومانيان هما جونس وتوذر كما سماه خالد ، فتسلل توذر تحت الليـل ليفجأ الجيش العربى عند دمشق بقيادة يزيد ابن أبى سفيان ويأخذ جيوش المسلمين على غرة متفرقين • فاتفق خالد وأبو عبيدة على تعقبه ومفاجأته من خلفه قبل أن يفاجىء يزيد بن أبى سفيان•فأوقعاه فى الفخ الذى نصبه ،

ولم يرجع خالد الى أبى عبيدة الا وتوذر مقتولوجيشه مبدد كما قال :

نحن قتلنا توذرا وشوذرا وقبله ما قد قتلنا حيدرا

نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

وفى قنسرين حصر خالد الرومان المحتمين بحصـــونها فطاولوه وأبرموه • فقال لهم محنقا : « لوكنتم فى السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا » • وأبى أن يصالحهم بعد ذلك الا على تخريب المدينة ودك حصونها • فختمت بذلك ضرباته الخالدية

ولـكنه كان قبل مرج الروم وقنسرين قد وفى « دوره التاريخى » أكمل وفاء ، فلو فاته هذان العملان لما نقص من مجده شىء ولا تغير مجرى الحوادث فىأعقاب هزيمة الرومان

أما سائر الميادين فقد تولاها قواد آخرون ففتحت بقية فارس وفتحت مصر وشطر من افريقية الشمالية ، وكتبت بذلك « أدوار تاريخية » أخرى للمثنى بن حارثة وسعد بن أبى وقاص والنعمان بن مقرن وعمرو بن العـاص ، ورجال غيرهم يساوونهم أو يقلون عنهم فى المقدرة ولا يقلون عنهم فى المقصد والنية ، وكل زيادة فى عمل خالد لا تضيفاليه مجدا فوق مجده ، وتنقص ولا ريب من عمل هؤلاء ، وتحرم الاسلام أيديا كثيرة تعمل له وتدفع عنه•وليس هو بمستغن عن تلك الأيدى الكثيرة بيد واحـــدة ، بالغا ما بلغ بهـــا الرجحان والاستعلاء

قلنا فى أول هذا الفصل أن انقضاء « الدور التاريخى » ببطل من الأبطال له آيات تدل عليه ، ومنها أن يعدو دوره الى أعمال يغنى فيها الآخرون فى هذا الباب مثل غنـــائه وتدخل فى باب من السعى والدراية غير بابه ، ونزيد على هذا أن غناء الآخرين فى هـذا خيرا من غنائه لهو أولى أن

يدل على انقضاء دوره وانتقاله الى من هو أحق به وأخلق

وفى ميدان الشام ــ بعد معركة اليرموك ــ كان أبو عبيدة ابن الجراح أحق بالموقف الجديد من خالد بن الوليد • لانه موقف التسليم والمســـالمة واستلال الحقود وضمد الجراح وتقريب القلوب ، وفى جميع أولئك يتسـع المجال لهوادة أبى عبيدة ويضيق بضربات خالد • فأبو عبيـدة يسرع الى المسالمة اذا فتحت له أبوابها ولا يبطىء عن الحرب اذا وجبت عليه أسبابها ، فان كانت بالمسالمة جدوى فذاك ، وان كان يوم الضربات الخالديات فهى لديه يرمى بها فى مراميها • وانما يكون العمل الاول هنا لمن يسالم ويتقبل التسليم ، ويكون العمـــل التابع له لمن يرفع سوط النقمة على الذين يلجون فى العداء كأهل قنسرين ، فلا يسلمون الا بتخريب الديار ودك الحصون

ولا جرم كان أبناء الأمصار يتسامعون بحلم أبى عبيدة فيقبلون على التسليم اليه ويؤثرون خطابهم له على خطابهم لغيره ، وكان خالد يرضى بهذا حينا ويسخط منه حينا كما سخط عند تسليم دمشق ووساطة أبى عبيدة فى العفو عن أهلها • فانه كان يحسبهم مغلوبين عنوة فيعاقبون بالسبى والقصاص ولا يبسط لهم مهاد العذر والموادعة ، ولو لا أنه لا يغدر بعهد عاهدهم به أبو عبيـدة لما كان لهم من شرط عنده غير شرطه على أهل قنسرين

فصواب التاريخ وصواب ابن الخطاب قد تلاقيا ها هنا باسناد الأمر الى أبى عبيدة بن الجراح فى أوانه المقـدور ، وان كان تلاقيا لم يجر على قصد مرسوم

□

تولى الفاروق الخلافة بعد الصديق عليهما الرضوان ورأى الفاروق فى أبى عبيدة بن الجراح معروف • فقـد

كان لا يعدل به أحدا من الصحابة الأولين،وقد هم بترشيحه للخلافة بعد وفاة النبى عليه السلام وقال وهو يجود بنفسه: انه لو كان حيا لعهد اليه ولم يلجأ الى مجلس الشورى الذى وكل اليه أمر انتخاب الخليفة بعده

وتحدث عمرو بن العاص مرة الى الفاروق فى رآســـة الجيوش الموجهة الى الشام فأجابه فى مقال صريح : «...انه ليس على أبى عبيدة أمير ، ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة ، والنبى عليه السلام قال فيه : أبوعبيدة أمين هذه الأمة »

وكما عرف رأى الفاروق فى أبى عبيدة عرف كذلك رأيه فى سابقة الاسلام والغزو على الاجمال. فانه خالف الصديق فى التسوية بين أنصباء المسلمين كافة يوم أخذ الصديق فى توزيع الأرزاق والأنفال ، وجعل للرجـــل نصيبا يختلف باختلاف سابقته فى الاسلام والجهاد ، لأنه « لا يجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، ولا يسوى بين من هاجر الهجرتين وصلى الى القبلتين ومن أســـلم عام الفتح خوف السيف »

فاقامة أبى عبيدة على ولاية الشام وقيادة جيوشها حادث لا غرابة فيه من الفاروق ولا ينتظر منه غيره . وبخاصة حين تكون امارة خالد بن الوليد بغير تأمير من الخليـفة الأول . انما هى اتفاق على تقسيم القيادة بين الأمراء يوما بعد يوم

وبهذه المثابة تكون ولاية أبى عبيدة سنة عمرية معروفة ولا يبلغ منها أن تكون « قضية » بين الفاروق وخالد عـلى الصورة التى هول بها بعض المؤرخين واتخذوا منها محورا للجدال والتنقيب عن الاسباب والاقوال

واذا نحن تجاوزنا النظر الى الموضوع من جانب هـــذه السنة العمرية فولاية أبى عبيدة كانت فى اعتقادنا أصلح

الولايات للشام فى تلك المرحلة التى انتهت اليها الحرب بين المسلمين والروم

فما نظن أحدا تفوته حاجة الشآم فى مثل تلك المرحلة التى انتهت فيها بطشة الحرب الكبرى وبدأت فيها ممهدات السلم والحكم والمصالحة • وهـذه مهمة وال يحسن الحرب ويحسن التوجيه اليها فى مناسباتها ، وليست مهمة قائد عسكرى يجرى الأمر على سنة السطوة العسكرية ، ويكون عمله الأكبر تحطيمقوى الأعداء فى ضربةطاحنة ثم يلاحقهم متى شاء بالمطاردة والتضييق والاحـــراج ، كما كان داب خالد فى بطشاته التى لا تبقى بعدها بقية لغير الاجهاز

واذ تكون هذه هى المهمة المطلوبة بعد معركة اليرموك فلا خلاف فى أى الرجلين أولى بالولاية عند ذاك : أبو عبيدة بن الجراح أو خالد بن الوليد ، ســـواء أكان الخليفة على رأى الفاروق أم كان على غير هذا الرأى فى أمين الأمة وفىسوابق الاسلام والجهاد

▭

ونما الى الفاروق بعد ذلك أن خالدا وعياضا أغارا عـلى بلاد الروم ورجعا منها بغنائم وأسلاب ، وأن الأشعث بن قيس قصد خالدا ومدحه فأجازه بعشرة آلاف درهم ، وأجاز آخرين من « ذوى البأس وذوى الشرف وذوى اللسان »

فعظم هذا البذل على الفاروق وكتب الى أبى عبيدة « أن يقيم خالدا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتىيعلمهم من أين أجاز الأشعث ، هل من مال الله أم من ماله أم من اصابة أصـابها ؟ فان زعم أنه من اصابة أصابها فقد أقر بالخيانة ، وان زعم أنها منماله فقد أسرف » وأمر أبا عبيدة أن يعزله على كل حال وأن يضم اليه عمله ــ وكان يومئذ يلى أمور قنسرين ــ وأن يقاسمه ماله نصفين

فصدع أبو عبيدة بالأمر وجمع الناس وجلس على المنبر ودعا بخالد فسأله : يا خالد ! أمن مالك أجزت عشرة آلاف أم من اصابة ؟ فلم يجب وأبو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة • فوثب اليه بلال مؤذن النبى عليه السلام وقال له : ان أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تنـــاول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه ، وسأله : ما تقول ؟ أمن مالك أم من اصابة ؟ فقال : لا ، بل من مالى • فأطلقه وعممه بيده وهو يقول : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا»

ثم قوسم ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيـــدة : ان هذا لا يصلح الا بهذا • فقال خالد : أجل • ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك

ولما علم خالد بعزله ذهب الى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم ثم ذهب الى حمص فخطب أهلها وودعهم وقال فى بعض خطبه : « ان أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى اذا كانت بثنية وعسلا عزلنى وآثر بها غيرى » • فنهض له رجل من السامعين فقال : صبرا أيها الأمير ! فانها الفتنة• فما تردد خالد أن قال : « أما وابن الخطاب حى فلا »

ثم قصد الى المدينة فلقى الفاروق فقال له : «لقد شكوتك الى المسلمين • وبالله انك فى أمرى غير مجمل يا عمر ! » فسأله الفاروق : من أين هذا الثراء ؟ قال : « من الأنفال والسهمان • ما زاد على الستين ألفا فلك » فزادت عشرون ألفا فضمها الى بيت المال • ثم قال له : « يا خالد والله انك على لكريم ، وانك الى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد على شىء » وأرسل الى الأمصار يأمر الولاة أن يعلنـــوا فيها باسمه : « انى لم أعزل خالدا عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا اليـــه ويبتلوا • وألا يكونوا بعرض فتنة »

تلك قصة خالد والفاروق

وهى قصة تؤلم وتؤسف ، الا أن الألم والأسف فيها من فعل الضرورة التى لا محيد عنها ، وليسا من فعل خالد ولا فعل الفاروق

ومن الحق للرجلين العظيمين أن نفهم هذه القصة على حقيقتها المبرأة من الخلط والجهالة • لان فهمها على حقيقتها موصول بتقدير الحالة كلها وموصول بتقدير الخليفة العادل وتقدير القائد الكبير

وأبعد شىء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة فى نفس عمر أو لتلك المنافسة التى تستحكم بين الأشباه والنظراء ، أو لغير سبب من تلك الاسباب التى كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة

وأسخف من هذه الظنون أن يسبق الى الوهم كما سبق الى وهم بعض المؤرخين أن عمر قد عزل خالدا لبغضاء قديمة مرجعها الى الصراع بينهما فى أيام الصبا ، وان خالدا صرع عمر وكسر ساقه فلم يزل بقية حياته واجدا عليه

وأجهل الناس بخلائق عمر من يجمح به الوهم الى ظن من هذه الظنون • فليس بين رجال التاريخ جميعا من هو أصعب تخطئة من عمر بن الخطاب ، لانه ليس بينهم جميعا من هو أشد حسابا لنفسه ومراجعة لنياته منه ، وأغلب الظن عندنا أنه لو أحس فى نفسه نية دخل أو ثأر قديم لكان أثر هذا الاحساس أن يؤجل عزل خالد ولا يعجل به مخافة من خدعة نفسه وتضليل هواه

فالحق أن حساب عمر لخالد لم يخالف قط حسابه لجميع ولاته • فكذلك صنع بعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص، وكذلك صنع بكل وال أحصى ماله فظهرت فيه الزيادة • وقد عزل زياد بن أبيه ثم قال انه عزله « لأنه كره أن يحمل

على الناس فضل عقله » وكان يحسب أنه قادر على أن يسوق العرب بعصاه لو أنه من قريش • ولقد تبين بعـــد أنه من قريش

وكانت سياســة عمر مع الولاة جميعا أن يراجعوه فى الأموال ، وبذلك أشار على أبى بكر فوافاه الحساب من كل وال الا خالدا أبى وأغلظ له فى الجواب حيث قال : « اما أن تدعنى وعملى والا فشأنك وعملك »

فلما بويع عمر كتب الى خالد أن يراجعه فى حساب المال والا يعطى شاة ولا بعيرا الا بأمره ، فأحاله الى ما جرى به العمل قبله • فلم يطقها عمر وقال : « ما صدقت الله ان كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه »

هذا الى الخلاف بين سنن عمر فى سياسة الناس وتصريف الشؤون وسنن خالد التى طبع عليهـا • فعمر كان يحب الأناة قبل القتل والقتال ومن ثم كان انكاره لمقتـــل بنى جذيمة ومقتل مالك بن نويرة ، وعفوه عن أسرى الســواد خلافا لما صـــنع بهم خالد فى معركة أليس أو نهر الدم كما سميت بعد ذاك • وقد حرم عمر « قيس بن سليط » أن يقود جيشا هو كفؤ لقيادته قائلا له : « لولا أنك رجل عجل فى الحرب لوليتك هـذا الجيش • والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث »

واذا كان عمر قد أوجس من عقل زياد بن أبيـــه وهو مجهول النسب فالفتنة باسم خالد أعظم وأخطر • انه لعظيم النزعة الى الاستقلال وانه لمن بنى مخزوم وهم أقوى قبائل قريش منفردين ، وله صهر فى سائر القبـــائل والبطون ولأبنائه أخوال فى بنى تميم وبنى حنيفة ، ولشهرته سحر فى نفوس الناس يفعل الأعاجيب ، وللزهو مكان من طباع خالد يحسب حسابه ولا ينساه الخليفة المسئول عن عواقب الأمور فى دولة الاسلام • فقبل أن يقهر خالد دولة الأكاسرة

ودولةالقياصرة رجع الى المدينة يوما فاذا هو يغرز فىعمامته السهام ويدخـــل المسجد بدرع القتال • فبعد غلبته عـلى الأكاسرة والقياصرة وشيوع ذكره فى الأمصار ماذا يجرى لو وهن الحكم يوما بعد « ابن الخطاب » ••؟

أما « وابن الخطاب » حى فلا كما قال خالد • ولكن ابن الخطاب لا يدوم ، والعواقب لا تنكشف ، وعزل خالد نقص يعوضه قادة آخرون من حقهم أن يعملواكما عمل ومن أثرهم أن يثوب الناس الى العقيدة وحدها فلا يحسبوا أن النصر رهين برجل واحد لا يرتهن بغيره

أما الاحتمال الآخر ـ ان حدث ـ فالخطر فيـــه عظيم والموازنة بينه وبين كل عاقبة يعقبها عزل خالد لا مجال فيها لتردد طويل

وهذا كله فضلا عن مرد العزل الى القسطاس الذى يرد اليه حساب جميع القواد والولاة • ولم يفت ذلك خالدا بعد هدوء الغضب والمثوبة الى الرأى،فقال فى مرض وفاته لأبى الدرداء : « قدكنت وجدت عليه فى نفسى فىأمور لماتدبرتها فى مرضى هذا وحضرنى من الله حاضر عـرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل • كنت وجدت عليـه فى نفسى حين بعث الى من يقاسمنى مالى حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل ، فرأيته فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة ومن شهد بدرا • وكان يغلظ على وكانت غلظتـه على غيرى نحوا من غلظته على ، وكنت أدل عليه بقرابة فرأيته لا يبالى قريبا ولا لوم لائم فى غير الله ، فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه ، وكان يكثر على عنده وما كان ذلك الا على النظر : كنت فى حرب ومكايدة وكنت شاهدا وكان غائبا فكنت أعطى عـلى ذلك ، فخالفة ذلك من أمرى »

ولقد توفى رحمه الله وهو يجعل وصيته وتركته وانفاذ عهده الى عمر بن الخطاب

ونحن اليوم ننظر الى القصة بعين التـــاريخ فنرى كما أسلفنا أن الفاروق انما ختم دورا ختمه القدر وانقضت به الحوادث • فلم يكن بعد القمة التى ارتفع اليهـــا خالد فى ضربته لدولة الرومان مرتقى لراق • ولعل مجده الباذخ قد كانت تعوزه قمة من نوع غير تلك القمم التى تسنم فيهـا صعدا من غلبته على طليحة ومسيلمة الى غلبته على القياصرة والأكاسرة : تلك هى قمة التجمل والاخـــلاد الى الواجب الأليم يوم عزله • فهى والله مما يحسب له الى جانب قممه البواذخ ، قمم العظيم الظافر الجسور ••• وأين لولا عزله كنا نبصر بينها قمة العظيم الصابر المطيع !

عبقرية الحرية

ومفتاح شخصيته

عبقريته الحربية

كسبت المعارك الحاسمة لأسـباب لا تحصى ، وكسبت معارك شـتى للسبب ونقيضه ، وربما تعـرض النقاد العسكريون للمعركة الواحدة فاذا بهم يردون النصر فيها الى أسـباب تتناقض وتتبـاعد كأنهم يتكلمون عن النصر والهزيمة

كسب بعض المعارك لأن الاقواس كانت أكثر من السيوف، وكسب بعضها لأن السيوف كانت أكثر من الاقواس

وكسبت معارك حاسمة لأن رماح المنتصرين كانت أطول من رماح المهزومين بشبرين أو بضعة أشـبار ، وكسبت معارك غيرها لأن الرماح كانت تتلاحق فى طولها على حسب الصفوف

وفي بعض المعارك كان الفرسان فى الوسط فقيـل ان هذا كان من دواعى النصر العاجل ، وفى معارك أخرى قيل ان دواعى النصر انما ترجع الى قيام الفرسان على الجانبين

وكثيرا ما يقال ان اشتراك الفرسان والمشاة فى العمل كفيل بالغلبة فى بعض الميادين ، ثم يدور الكلام على ميدان آخر فيقال ان تربص الفرسان بمعزل عن القتال الى ساعة الفصل هو الكفيل بالغلبة المؤزرة حتى نهاية القتال ، وربما قيل ان ظهور الفرسان فى ميدان يضيق عن حركات المناورة جنى على الفرسان وعلى المشاة فدب الفشـل فى صفوف هؤلاء وهؤلاء

ولقد يحـاول بعض الخبراء أن يجمعوا أسباب النصر الى قاعدة موجزة فيقولون كلاما يحسن الاطلاع عليه ، ولكنه كلام يقرؤه القائدان معا فيبوء أحدهما بالنصر ويبوء الآخر بالهزيمة

مثل هذه القواعد الموجزة كمثل القاعدة التى توجز لك البلاغة الشـــعرية فى كلمات ثلاث : وهى الوزن واللفظ والمعنى • ولا خطأ فى هذا الايجاز ، ولكنه مع هذا لا يعلم الشاعر الصواب

وقصارى ما يقال بعد تقرير الأسباب وتدوين القواعد أنها لا تمنع الفروق بين معركة ومعركة وميدان وميـدان ، وأن القائد الموفق هو الذى يلمح هذه الفروق فيعمـــد الى العمل اللازم فى الوقت اللازم بالقدر اللازم ، فلا ينقص أو يزيد ولا يتقدم ولا يتأخر،ولا يوحد العمل مع وفرة الفروق

واذا كان كل شىء فى المعركة يتوقف أحيانا على كذا أو كذا من الخطوات فى السبق الى حومة القتال ، وكذا أو كذا من الأشبار فى طول الرماح ، وكذا أو كذا من التفاوت فى سرعة القذيفة هنا أو هنـاك ، وكذا أو كذا من الحركات الى اليمين أو الى الشمال والى الامام أو الى الوراء ، فتفصيـــل أسباب النصر فى المعارك القديمة على التخصيص ضرب من المستحيل ، لأن اثبات الفوارق بين المعسكرين فى الاسلحة والمواعيد والعدد والحركة غير ميسور • وأقصى ما نطمع فيه أن نقنع بالاجمال دون التفصيل

واجمال القول فى توفيق خالد بن الوليد أنه لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضـــال : وهى الشجاعة والنشاط والجلد واليقظة وحضور البـديهة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير

وأنه كان يضع الخطة فى موضعها ساعة الحاجة اليهـا •

فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكمين والكمينين كما يحارب أحيانا بغير كمين ، وكان يستخدم التورية والمباغتة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعى والأحوال

وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى فى الحرب من الحصار والاحتلال

وعلم أن الخبر قوة وسلاح • فكان يستطلع أخبار العدو ولا يتيح له أن يستطلع خبرا من أخباره يفيده أو يحميه من بأسه

وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغفل عن القوة الأدبية يعززها ما استطاع فى جيشه ويضعضعها ما استطاع فى جيش عدوه

فكان هو نفسه مادة لهذه القوة الادبية تجيش بها نفوس أنصاره فيثقون بالفوز ويأمنون خطر الهزيمة ، وتشيع فى نفوس أعدائه فيسرى اليهم الذعر وتفارقهم الثقة والطمأنينة

والى هذا كان يعتمد على قوة الايمان وهمة الأمل فيتعهد جيشه بالعظات قبل القتال وفى أثناء القتال ، ولا يفوته وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتذمير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذى هو ضرب من العمل، فاذا قال : « ان الصبر عز وان الفشل عجز وان الصبر مع النصر » فليست هى أصداء تمر بالهواء ولكنها هى العز والصبر ماثلان للعيان يسريان بالقدوة منه الى كل مسمع وجنان

والى هذا وذاك كان يثير المنافسة الكريمة فى صدور جنده وأعوانه ، فيدعوهم الى التمايز والتناظر ليتفث فيهم مع عزيمة الايمان عزيمة أخرى من حب الفخار وخوف المسبة والعار

ويتخذ من الغيرة على العرض مددا لهذه العزائم التى

تواجه الموت على حد قوله كما تواجه الحياة ، فاذا بالرجـل الفرد يبلى فى قتاله ما ليس يبليه عشرات

ولم يخف عليه قط مقتل العدو من قوته الأدبية حيثما عمد الى هذا المقتل فى منازلاته للمستبدين والطغاة • فانهم فى جيوش الأمم التى طال عهدها بالظلم يرتفعون الى مقام الأرباب من حيث يتحدر رعاياهم الى مقام القطيع السائم• فاذا أصيب القائد فى الجولة الأولى فكثرة الجند بعد ذلك معوان على الهزيمة وليست بالوقاية منها ، لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات

ولقد كان هو يخلق فنون الحرب التى يجمعها « الخبراء » فى عصورنا هـــذه بمراجعة الحروب وتحصـيل الدروس واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات

قرأنا فى كتاب « فن الحرب اليوم (١) » لمؤلفيه من قواد البحر والبر والهواء : « عند بحث هذه المسألة ينبغى أن نحضر فى أذهاننا انه مع استثناء قليل لم يكن ثمة الا نوعان من السلاح سيطراً فى حومة القتال ، وهما السلاح المقذوف والســـلاح الضارب أو القارع ، أى النبل أو الســهم أو الرصاصة من جانب ، والهراوة والسيف والرمح من الجانب الآخر • ومجمل ما يقال بعد هـــذا أن الصف هو أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف وأن الكردوس أنسب الأوضـــاع لتطور قوة الســـلاح الضارب • لأن الرماة بالقذائف يحتاجون الى مدى مكشوف ، وانما يتأتى الضرب فى العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات »

ان خالد بن الوليد لم يقرأ هذا ولم يفته شىء بفوآته عنه، لأنه قد علم كنهه ولبابه من بديهته الحربية فقاتل بالصفوف حيث تغنى الصفوف وبالكراديس حيث لا تغنى الا الكراديس

---

(١) Warfare Today تأليف الاميرال باكون والجنرال فلر ومارشـــال الطيران باتريك بلايفير

وفي هـــذا الكتاب أيضا يقول المؤلفون : « يتضح مما تقدم أنه فيحملات السلاحالضارب هناك أمرآن ضروريان: وهما الاستطلاع وكتمانالحركات ، والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو ومن كتمان الحركات أن تحول بينـه وبين وزن قوتك وتوقع الهجمة من أى موضع تكون »

ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجرى فى عصرنا الحديث فيقولون : « وعلى هذا يجرى الاستطلاع من الهواء قبـــل الحركات الأولى وفى خلالها ، وتتقدم الكراديس أثناء ذلك على نظام المعركة ، أى على النظام الذى تتألف به حين تدعى الى الهجوم »

وهذه هى ربيئة خالد للاستطلاع ، ومسيره «على التعبئة الكاملة » التى يهجم بها ساعة اللقاء بالنظام الذى كان يسير عليـــه ، ثم يدخل فى التحام قريب ولا يطيـل فى موقف التقاذف بالنبال والسهام

ونقرأ فى كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة (١) » لمؤلفه ونترنجهام الذى كان محررا لمجلة الجيشوالبحريةبالولايات المتحدة : « ان سرعة الحركة وقوة الاصـابة وتدبير الوقاية هى الآن كما كانت فى كل زمان بعض مفاتيح النصر التى لا شك فيها،فاذا كسبت المعارك أحيانا بالمفاجأة أو التركيز فى الموضع الحاسم وفى الوقت اللازم أو المناورة البارعة ، فهذه المزايا انما تستمد مباشرة منالتفوق فى سرعةالحركة أو فى قوة الاصابة أو فى تدبير الوقاية »

وخالد بن الوليد لم يقسم فن التعبئة هذا التقسيم حين علم أنه يضمن سرعة الحركة باقتحام الصـــخراء المخيفة ، ويضمن المفاجأة بهـذا الاقتحام ، ولا يزال واثقا بالوقاية

---

(١) Weapons and Tactics تاليف Wintringham

حيثما حارب وظهره الى الصـــحراء ، أو حيثما تقدم وراء جيش مهزوم لا يتماسك له قوام

ووضـــع الخبير الحربى المشهور ليدل هارت (١) كتابا مستقلا عن فن سوق الجيوش على طريق التورية لخصه فى قوله : « ان التحرك فى الوجهة المتوقعة يحفظ توازن العدو ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرته على المقاومة ، وفى الحرب ـ كما فى المصارعة ـ انما يتأتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتخل توازنه باستنفاد قوتك أنت استنفادا لا يناسب الجهد الذى يلقاه خصمك • ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة الا بفضل الرجحان الكبير فى قوتك على نحو من الانحاء • وقد يضعف الحسم فى النتيجة مع ذاك • وعـلى نقيض هذا ينبئنا التاريخ العسكرى فى جميع العصـــور لا فى عصر واحد أن جميع الحروب الحاسمة على التقريب أن الاخلال بتوازن العدو نفسيا وماديا هو المقدمة التى لا محيص عنها للقضاء عليه »

وهذا الاخلال بالتوازن هو الغاية التى كان يتوخاها ابن الوليد اما بالهجوم من جهتين أو ثلاث جهات ، واما بالمفاجأة التى لا تتوقع بحال من الاحوال ، واما بالكمين الذى يدخل اليأس على العدو فى ساعة حرجة ، واما بالتطويق من حيث لا ينظر التطويق

وكل أولئك مفهوم جد الفهم أن يزلزل الأقـدام ويخل التوازن ، وكل ما يزلزل أقدام الانسان فى الحرب أو السلم فهو كذلك مفهوم جد الفهم من أقدم الزمان ، ولكن القدرة حق القدرة هى معرفة الوقت ومعرفة الوسـيلة ، ومعرفة التنفيذ متى عرف الوقت وعرفت الوسيلة، وبهذا دون غيره تتجلى « معرفة » القواد الملهمين

---

(١) The strategy of Indirect Approach تأليف Liddell Hart

وقال خبير حربى آخر هو أرثر برنى (١) فى كتابه « فن الحرب » معقبا على حروب الفرس واليـونان : « كانت قوة الفرس ، جنودا ، قائمة على الخيالة والرماة٠وكانتطريقتهم فى القتال أن يمطروا العدو سهاما ، ثم يجترفوه بحملة من الفرسان فى الوقت اللازم ، وأفلحت هـــذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين وأصحابالرماح الراكبة من الليديين وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين ٠ لكنها خابت مع اليونان،وكانت التبعة فى خيبتها علىضعف فرق المشاة الفارسية ، فاذا ما استطاع الجند الاغريق أن يقتربوا ـ وكل شىء يتوقف على هذا ـ تناولوا المشـــاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة ٠٠»

ولو عمم هذا الخبير القول لوجب أن يقول ان الذى خيب طريقة الفرس مع اليونان هو الذىخيبها مع العرب من أيام ذى قار الى أيامخالد بن الوليد،فالهجوم منقريب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الجنة التى احتمى بها العرب من الرماة ومن الفرسان ، بل من الفيلة فى بعض الاحيان، وقد قيل فى الأمثال الشعبية التى هى أصـــدق من قواعد الخبراء « الذى تغلب به العب به » وقد كان خالد يعلم أن الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجنـــدى الذى ينافح عن عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف٠فلم يلق الفرس ولا الروم الا فى اشتباك والتحام

وقد صح هنا رأى ونترنجهام مؤلف كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة » الذى سبقت الاشارة اليه حين قال : « ان بعض الجماعات الانسانية بطيئة التغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الأسيوية التىيحكمها ملك أو عاهل مرفوعالنسب الى السماء،فانها تنتظم على سنن فحواها أنالتغيير لا ينبغى وان العادات المأثورة كلها حسنة قويمة ، وان كل ما يعمل

---

(١) Arthur Birnie فى كتاب The Art of War

الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان ، وربما لاذت بعض الأمم التى هى أقرب الى التـــقدم بفترة من فترات الراحة تستبقى فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم • فاذا برزت جماعات من هذا القبيل للقتـــال برزت وفى رؤوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها ، ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بســـلاح جديد أو معرفة جديدة ، ورسخت عندهم أصول رجعيـــة للحرب أولم تكن لهم فيها أصـــول على الاطلاق • ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقا للترتيب الذى وضع منذ عهد بعيد • وان هذه الجماعات لتخرج جيوشا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التى يسهل عليها اتخاذ الاساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارىء »

ولو شاء صاحب هذا الرأىلشمل الدولة الرومانيةفيما حكم به على الدول الأسيوية ، لأنهـا كانت تقاتل بخطط وضعها الأقدمون لها منذ قرون ، وهى على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم عجزها عن ابتكار الجديد

□

وجملة القول أن خالدا كان يحـــارب بالقريحة الملهمة أناسا رثت عقائدهم كما رثت ملكاتهم العسكرية • فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم فى الميدان على نحو مرســـوم كأنهم قائمون فى مراتبهم بديوان التشريفات ! وكان خالد يلبى الضرورة عفو الســاعة فى ترتيب كل كتيبـــة وكل سلاح • فاذا بدا له أن الخيالة لا تجدى فى الحركة جـــدوى المشاة ترتبت حركات الجيش معه كما تترتب الحركات فى أعضاء الجسم الشاعر بتلبية الأعصـــاب والجوارح لمراكز التنبيه فى الدماغ فيترجل وقد ترجـــل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه فى كره وفره وهجومه ودفاعه

واذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة فما هى الا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها الى قائدها المختار : تمايزوا أيها الناس ! فاذا هم بعد لحظات متمايزون

وكانت مادة القتال التى يعمل بها من جند أو سلاح تغنيه وتلبيه • فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقد مفقود لأنهم مؤمنون عالمون أن الموجود هو الله رب القائد والمقود ، وكانوا يصبرون على الهزيمة لأنهم عرب معودون فى غزواتهم أن يكروا بعد فر وأن يجتمعوا بعد تفرق • فهم يحسبون النكوص ضربا من التحفز للوثوب • أما خصومه فكانوا يتساقطون كما تتساقط حجارة اللعب المرصوصة اذا سقط منها الحجر الأول•••فلا تماسك لها بعد ابتداء السقوط

ومن ثم كان نمطا فريدا بين قواد التاريخ ، لانه يمزج فن البداوة بفن الحضارة ، وكان يقتبس ويجدد بالرأى والفطنة كما يقتبس ويجدد بغريزة موروثة من قبيلة «القبة والأعنة » يصح أن تسمى غريزة الميدان

وقد تصعب المقارنة بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات ، وان كنا نعتقد أن القائد العبقرى تسعفه عبقريته على اختلاف العصر والسلاح

ولكن المقارنة بينه وبين قوآد الطراز الأول فى الزمن القديم تقدمه الى المرتبة الأولى بين أكبر القواد ، ومنهم الاسكندر وبلزاريوس اللذان حاربا عدوا كعدوه فى ميدان كميدانه • فالاسكندر فى وقعة «أربل» هزم جيشا فارسيا تقدر عدته بمائة ألف من الفرسان والمشاة ، وبلزاريوس فى وقائع ارمينية هزم جيشا فارسيا تقدر عدته بأربعين ألفا أو قرابة الأربعين•••والمقارنة بين خالد بن الوليد وهذين القائدين ترجح كفته على كفتيهما معا فى هذا الميدان ، لأن

الاسكندر كان يقود خمسة وأربعين ألفا وبلزاريوس كان يقود نيفا وعشرين ألفا ، وكلا الجيشين مسلح بأمضى الأسلحة فى ذلك الزمان

وقدكان خالد يحارب بثمانية عشر ألفا جيوشا أعظم من الجيوش التى تصدى لها القائدان الكبيران،ولم يكن له مثل سلاح المقدونيين أو سلاح الرومانيين ولم يكن نصرهما كنصره ولا العاقبة بعدهما كالعاقبة بعده • وزاد على ذلك أنه انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم: ومنهم الرومان فى أكبر الميادين ، وهو ميدان اليرموك

فمكان خالد فى التاريخ العسكرى هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن أو اشتهروا بالعبقرية أو اشتهروا بالمناقب الشخصية • وفيه من ملامح القيادة فى العظائم والصغائر ما يدل على طبيعة القيادة الملهمة فيه ، وانه كان كما يقال قائدا من فرع رأسه الى قدميه

فقد خالد قلنسوته يوم اليرموك فقال : اطلبوها • فبحثوا ونظروا فلم يجدوها • فما زال بهم يأمرهم أن يطلبوها ويلحوا فى طلبها حتى وجدوها ، فاذا هى خلقة لا تساوى شيئا • فسئل عن ذلك فقال : « اعتمر النبى صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم الى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالا وهى معى الا تبين لى النصر »

رحمه الله ! لم تفته من سمات القيادة حتى التعويذة المشهورة بين رجال الحروب ••• فما زال معلوما عن كبار الجند أنهم يأنسون الى تعويذة يعتزون بها ويستبشرون بصحبتها وهم يخوضون غمرات الموت • وما فى ذلك من عجب • فليس أحوج الى صلة بعالم الغيب من رجل يلقى الموت صباح مساء

وقال خالد فى أخريات عمره : « ما ليلة يهدى الى فيها

عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام أحب الى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد ..»

هذا حبيب الحرب الذى يهواها وتهواه.فله منها الصفوة التى لا تصطفى بها أحدا من الطلاب والقرناء على بغضاء

مفتاح شخصيته

تقدمت الاشارة الى قصة الشبه القريب بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب فى ملامح الوجه وطول القامة ، وانهما كانا من التقارب بحيث يشتبه الامر على قصير النظر وهو يتكلم اليهما ، فيخاطب عمر بن الخطاب وهو يظن انه يخاطب خالد بن الوليد

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين أن الشبه بينهما يتعدى الملامح والقامة الى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية ، فكلاهما يجوز ان يقال فيه انه « جندى » بالفطرة وان « مفتاح شخصيته » هو السليقة الجندية ، فاذا احضرنا فى اخلادنا كلمة « الجندى » أو الجندى المطبوع لم نجد فى ابن الخطاب ولا فى ابن الوليد صفة لا تحتويها هذه الكلمة فى معنى من معانيها

وبين الرجلين فارق لا خفاء به فى الخلق والتفكير

لكنه فارق لا يخرج بهما من نطاق هذه الطبيعة ، فكلاهما جندى مطبوع على الخلائق الجندية . ولكن ابن الخطاب تغلب عليه ، من مزاج الجندى ، ناحيته الروحية او ناحية الضمير ، وابن الوليد تغلب عليه من هذا المزاج نفسه ناحية الحيوية او ناحية البنيان والتركيب

واصح من هذا ان نقول ان عمر كان جنديا فى اخلاقه

الوازعة الحاكمة ، وأن خالدا كان جنديا فى أخلاقه الدافعة الهاجمة . وفى الجنود كمـا لا يخفى هذه الأخلاق وهـذه الأخلاق

ولا ريب أن هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله انما هو قبل كل شيء فارق بين نفسين ، أو بين رجلين ، أو بين « شخصيتين »

لكن هذا لا يمنع ان يكون فى الوقت نفسه فارقا بين «قبيلتين» وبين أسرتين وبين نشأتين. فان الفوارق بين بنى عدى قبيلة عمر وبين بنى مخزوم قبيلة خالد لخليقة أن تتجه بالمزاج المتقارب وجهتين متباينتين

فبنو عدى ـ آل عمر ـ كانوا فى الجاهليـة أهل تحكيم ومعرفة بالفصل فى الخصومات ، وقد ذاقوا كمـا قلنـا فى « عبقرية عمر » « طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس ، وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم لعقة الدم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس الى عدد أقربائهم. فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم وحبه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه ... »

أما بنو مخزوم ـ آل خالد ـ فكانوا على خلاف ذلك أهل حرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء ، وكانوا فى الجاهليـة موكلين بالخيل والسلاح ، معتزين بالعتاد التليـد ، والعدة والعديد

وكان ثراؤهم يملى لهم فى أسباب الترف والنعيم كما تملى لهم فيه مزية أخرى من المزايا التى تكفلهـا للقبيلة عزة السلطان وطول العهد بالحضارة والرئاسة ، وتلك المزية هى جمال النسـاء

فقد كان يقال ان « المخزوميات » رياحين العرب

وكان فى رجالهم ذلك الغزل الذي أخرج منهـم شاعره

الاول عمر بن ابى ربيعة ، بل اخرج منهم غزلين ظرفاء حتى فى النساك والاتقياء

جاء فى كتاب الأغانى عن ابى السائب المخزومى « انه كان رجلا صالحا زاهدا متقللا يصوم الدهر ، وكان ارق خلق الله واشدهم غزلا . فوجه ابنه يوما يأتيه بما يفطر عليه . فأبطأ الغلام الى العتمة . فلما جاء قال له : يا عدو نفسه ! ما أخرك الى هذا الوقت ؟ قال : جزت بباب بنى فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته ، فقال : هات يا بنى ، فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونك ، ولئن كنت أسأت لأضربنك . فاندفع يغنى بشعر كثير :

ولما علوا شغبا (١) تبينت انه
تقطع من أهل الحجاز علائقى
فلا زلن حسرى ظلعا . لم حملنها
الى بلد ناء قليل الأصادق

فلم يزل يغنيه الى نصف الليل . فقالت له زوجته : يا هذا . قد انتصف الليل وما أفطرنا . قال لها : انت طالق ان كان فطورنا غيره . فلم يزل يغنيه الى السحر . فلماكان السحر قالت له زوجته : هذا السحر وما أفطرنا . فقال : انت طالق ان كان سحورنا غيره . فلما اصبح قال لابنه : خذ جبتي هذه واعطنى خلقك ليكون الحباء فضل ما بينهما . فقال له : يا ابت ! انت شيخ وانا شاب وانا اقوى على البرد منك . قال : يا بنى ! ما ترك صوتك هذا للبرد على سبيلا ما حييت »

واطرح كل ما فى هذه القصة من المبالغة والاغراق تبق منها بقية كافية لبيان مكان الغزل من نساك بنى مخزوم ، فضلا عن الشعراء والظرفاء

وندع القبيلة الى الأسرة فيتراءى لنا فى النظرة الاولى

---

(١) سهل بين طريقى مصر والشام

ذلك الاختلاف الذى لا بد منه بين معيشة الخطاب ومعيشة الوليد . او بين معيشة الرجل الكادح لنفسه الخشن فى ملمسه وبين معيشة الرجل المترف الفخور بالمال والبنين والجاه المكين

لكنه مع هذا فرق فى المعيشة لا يتغلغل الى بواطن الطباع. انما الفرق المتغلغل الى بواطن الطباع بل الى اعمق اعماقها هو فرق البنية العصبية بين ابناء الخطاب وابناء الوليد

فمن أوصاف أبناء الوليد عامة يتكشف لنا « قلق عصبى » فى هذه الأسرة قد تطرف جد التطرف فى أفراد منها واعتدل بعض الاعتدال فى آخرين

فعمارة بن الوليد هو الذى بلغ منه الاضطراب أن يراود امرأة فى محضر زوجها ، وأن يجترىء على حرم النجاشى بالمغازلة ثم يجترىء بالتحدث عن هذه المغازلة حديث الفخر والمباهاة ، ثم ينطلق مع الأوابد فى الآجام بفعل السواحر كما قيل ، وهو قول لا يخفى مدلوله فى لغة العصر الحديث

وذكر عن خالد كما ذكر عن أخيه الوليد أنه كان يتفزع فى نومه . فذاك أثر من آثار « أعصاب الأسرة » كلها على ما هو واضح من جملة المشاهدات فى أبنائها ، وان كان يجمح بهم فى حين ويكبح فى حين

وقد كان خالد يغضب فينتقع لونه كما جاء فى كتب الفتوح من حديث المغاضبة بينه وبين أبى عبيدة بعد تسليم دمشق ومصالحة اهلها . وقد كانت علة المغاضبة أن أبا عبيدة يحسب التسليم صلحا وخالدا يحسبه غلبا يحق فيه على المغلوب جزاء السبى والاغتنام والقصاص

وكانت فى خالد حدة يملكها أو تملكه آونة بعد آونة . وفى التعليل الذى بلغنا اشارة الى الكثير الذى لم يبلغنا . فقد غاضب ابا عبيدة وغاضب عبد الرحمن بن عوف وغاضب عمار بن ياسر . وقال له عمار وقد سمع منه ما ساءه :

« لقد هممت ألا أكلمك أبدا » فأصلح بينهما النبى عليه السلام وهو يقول لخالد : « يا خالد ! مالك ولعمار . رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا » ثم يقول لعمار : « ان خالدا يا عمار سيف من سيوف الله على الكفار »

فهذا الفارق بين الأسرتين ، وذلك الفارق بين القبيلتين ، مفسران صالحان لاختلاف لونى « الجندية » فى شخصية الرجلين العظيمين : عمر الى الجندية الموزوعة وخالد الى الجندية المدفوعة ، وعمر الى الشظف المختار وخالد الى المتاع المباح

ولا يرد الينا العجب بعد هذا أن يكون شعور خالد بالمرأة هو شعوره ذاك الذى أهدفه للملاحظة والمؤاخذة مرات ، وجعل من مؤاخذيه أرغب الناس فى عذره والثناء عليه ، ونعنى به الخليفة الصديق

وقد كان هذا الشعور يلازمه ما يلازم أبناء الثراء من حب الرفاهة وبهجة الحياة . فلم يفرغ من الحرب قط الا انقلب منها الى واد ظليل فى صحبة زوج محببة اليه . فقضى فى وادى الوبر باليمامة أيام الدعة بين زوجيه بنت مجاعة وبنت المنهال . وقضى فى دومة الجندل أيام الهداة بين الوقائع فى صحبة ابنة الجودى الحسناء ، واستطاب المقام بحمص بعد العزل وآثره على المقام بالحجاز . وأغضب الفاروق لأنه « كان يدخل الحمام فيتدلك بعد النورة بثخين معجون بخمر » فلما لامه الفاروق فى ذلك قال : انا قتلناها فعادت غسولا غير خمر ، ثم قال يخاطب عمر :

سهل ابا حفص فان لدينا
شرائع لا يشقى بهن المسهل
وهل يشبهن طعم الغسول وذوقه
حميا الخمور ، والخمور تسلسل

وفى كل أولئك هو سليل حق لبنى مخزوم ولبيت الوليد ،

وترجمان صدق لتلك البنية العصبية المتفززة التى تجنح به الى المتعة فى أيام الدعة كما تجنح به الى البطش فى مقام الجلاد والعناد ، وتفسر لنا الجنـدى الذى تميل به القوة الحيوية تارة الى لقاء الحسان وتارة الى لقاء الأقران

وهو نفسه قد أبان عن طويته كلها غير عامد حين قال : « ما ليلة يهدى الى فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيهـا بغلام أحب الى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد »

فالحرب عنده اشتهاء ، والعروس غاية المتاع

والحرب فى رأيه حسناء تشتهى أبداً ولا تشيب كصاحبة الزبيدى التى تكون فى مبدئها « فتية تسعى بزينتها لـكل جهول » ثم تصبح :

شمطاء جزت شعرها وتنكرت
مكروهة للشم والتقبيـــــــل

وأيا كانت متعته بالمرأة الحسناء أو بالمقام الوثير فهى متعة القوى اليقظان وليست بمتعة الضعيف المستنيم :

هى متعة المسافر الذى يستريح الى الواحة لينفض عنه الجهد ويتزود منها لجهد جديد ، وليست متعة المتهافت الذى يتوق الى مهاد الراحة لينغمس فيها ويستكين اليها ولا يفيق من سكرتها

بل هو يحب المتعة لأنه يحب الجهاد ، فاذا طالت عافهـا وبرم بها واجتواها ، وأنف أن يقنع بها ويستمرئها . فلم يطق سنة واحدة بالحيرة بين حروب فارس وحروب الروم ، وسماها «سنة نساء» لأنها كانت سنة راحة من العناء ... مع أنها كانت راحة المتربص المتوفز ، وكانت راحة تتخللها وثبات وضربات من هنا وهناك

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير ليأخذ من الشدة بأوفر المقادير

لان طبيعته القوية هيأته للشدة والبأس قبل كل شيء ، وما بقي من الطبيعة للرياضة فقد اتته الرياضة بعزيمة الجبابرة التى لا تلين : باستمراء ما لا مراءة فيه من طعام وشراب ، وبأكل الضب وشرب السم ومطاولة الركوب اياما بعد أيام

لا جرم يكون أكبر الأسى لتلك النفس فى ساعة الموت انها تموت على الفراش أو على حد قوله كما يموت البعير : « لقد طلبت القتل فى مظانه ، فلم يقدر لى الا ان أموت على فراشى ... ولقيت الزحوف وما فى جسدى شبر الا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم او طعنة برمح ، وها انا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء »

وأقرب شيء أن يلاحظ فى سيرة خالد ــ من نشأته الى وفاته ــ أن هذا الولع كله بالحرب لم يكن ولعا بالشر والسوء ولا ولعا بالضغينة والبغضاء ، فكانت عداواته كلها عداوات جندى مقاتل ولم تكن عداوات مضطغن آثم .. ولم يعرف قط عنه انه حمل الضغينة لأحد من الناس . ولو انه اضطغن على احد لكان أحق الناس أن يضطغن عليه عمر بن الخطاب ، لانه عزله وشطر ماله وأبقاه فى العزلة سنوات ، ولكنه لم يعمل عملا واحدا ولم يقل كلمة واحدة تدل على ضغن عليه . وقد سامحه والتمس له المعذرة وعلم انه اراد وجه الله بما حاسبه عليه ، وكان أشد ما قاله فيه « الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب الى من عمر ، والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض الى من أبى بكر ثم الزمنى حبه » وربما ذكره وهو غاضب فسماه « الأعيسر ابن أم شملة » فكانت هذه الكلمة أدل على التحبب منها على الكراهة ، ولاحت كأنها كلمة المغلوب فى لعبة لا فى غرض عظيم يقعد ويقيم

وقد يمكن كثيرا أن تتسع هوة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والضغينة ، وانها لأولى أن تتسع بينهما حيث تكون الحرب ميدان التضحية والفداء فى سبيل الغيرة القومية أو سبيل الايمان والضمير ، وحيث يكون الرجل قد تربى على مراسها وطبع فى نفسه على مزاج يالف القتال ولا ينفر منه ، وليس فى المجتمعات الانسانية التى تصبح الحرب فيها ضرورة من ضرورات الحياة والشرف باعث الى النفرة من القتال ، ولن تزال القدرة على الحرب شرفا وشجاعة الى آخر الزمان ما دام فى بنى الانسان من يحمل السلاح للعدوان والبغى والتلصص والمراء ، فيتقيه بنو الانسان بمن يحمل السلاح للحق والعقيدة والانصاف

وعلى كثرة من قتل خالد فى حروبه لم يكن يقتل احدا قط وهو يشك فى صواب قتله وان اخطأ وجه الصواب . فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف الجلادين بأمره فى « نهر الدم » كانوا يستحقون عنده القتل قربانا الى الله وجزاء لهم على عناد الشرك والاصرار

أما اذا شك فى صوابه فهو يستكثر المساءة الى رجل واحد فضلا عن الجحافل والقبائل ، ويسبق الى الرفق رجلا كأبى عبيدة عرف طول حياته بالرفق والرحمة والأناة . فيقول له وقد تناول رجلا بشىء : « انى لم أرد أن اغضبك ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان اشد الناس عذابا يوم القيامة أشد الناس عذابا للناس فى الدنيا »

فهو مطبوع على عداء الجندى المقاتل وليس بالمطبوع على عداء الدسيسة والشر فى صغائر العيش وسفساف الامور

كذلك لا يفهم من ولعه بالحرب على هذه الصفة انه كان مبتلى بذلك الولع الاهوج الذى يبتلى به من لا يعقلون هجوما الا كهجوم الريح أو فرارا الا كفرار الحيوان

فقد كان يقدم عن علم بمواقع الاقدام ، ولذلك لم ينهزم قط وهو مسئول عن الهزيمة . وانما هزم فى حنين مرة واحدة وهو غير مسئول عن اليوم كله كما قدمناه

اما اذا وجب التراجع فالشجاعة كل الشجاعة عنده أن يؤمن بهذه الحقيقة وأن يدبر أمر التراجع بعد ذلك على النحو الذى يصون الكرامة ويصون الدماء ويكون المخدوع المغلوب فيه هو العدو الذى أمكن التراجع من بين يديه ، وقد كان فى وسعه ان يبطش بالمتراجعين جميعا قبل أن يفلتوا من أرهاقه المطبقة عليهم

هذه هى الجندية البصيرة بمزاياها فى الكفة الراجحة والكفة المرجوحة أو هذه هى الجندية الغالبة ابدا وهى فى اقدام او فى احجام

ولقد كادت هذه الطبيعة الجندية أن تحيط بكل ما رزق من طبيعة حية

فمن اقواله : أن الجهاد شغلنى عن تعلم القرآن ، أو عن قراءة كثير من القرآن

وعذره فى ذلك حين قال ذلك المقال انه لم يقض فى ملازمة النبى غير أوقات جد قصار ، لأنه شغل السنوات الثلاث التى قضاها مع النبى بعد اسلامه وهو بين السرايا والغزوات

وقد كان يخطب ويكتب ويقول الأبيات من الشعر والرجز على مثال ما قدمناه . ولكنها الخطب والكتب التى يستطيعها العربى الفصيح الناشىء فى كنف الفصحاء ، ثم هى كلها ملحقة بوظيفة الجندية فيه ، فاذا قال كلمة أو كتب سطرا فكأنما يكتب بحسام لا بيراع

كتب الى مرازبة فارس فقال : « الحمد لله الذى فض ملككم وأذل عزكم ، فاذا أتاكم كتابى هذا فابعثوا الى الرهن واعتقدوا منا الذمة واجيبوا الى الجزية ، والا والله الذى

لا اله الا هو لاسيرن اليكم بقوم يحبون الموت كمـا تحبون الحياة ، ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا »

وخطب فى المسلمين وقد تهيبوا طروق المفازة من العراق الى الشام فقال :

« لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية والأجر على قدر الحسنة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث لشىء يقع فيه مع معونة الله له »

ويسمع الكلمة فيردها بالجواب المسكت كأنه يتلقى ضربة سيف بضربة سيف كما قال حين سمع صائحا فى المعسكر يصيح : ما أكثر الروم وأقل المسلمين

فلم يكن أسرع منـه الى أن يقول : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين . أن الجيوش انما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان»

فكل كلمة منه فانما هى ضربة سيف فى صورة حروف ونبرات

ومن الملاحظات الجديرة باستقراء علم النفس أنه على التشابه بينه وبين عمر كان فى عمر جانب فكاهة وان كانت خشنة غليظة ، ولم يكن فيه هو مثل هذا الجانب فى عمله أو كلامه

وقد كان الأدنى الى الظن ــ عنـد النظرة الأولى ــ أن تنمو الفكاهة مع الرجل الذى نشأ فى مهد اليسار ولا تنمو مع الرجل الذى نشأ على العسر أو اليسر القليل

لكنها النظرة الاولى ولا تتعداها

لأن الاعسار فى الواقع أعون على الفكاهة من اليسار ، ومن هنا كان ولع الناس بالفكاهة فى أيام الحروب وأزمات الشدة ومظالم الاستبداد ، كلهـا ضرب من التعويض والمقابلة ، ولا غرابة فى ذلك حيث ننظر الى منشأ الفكاهة فى جملتها ،

فهى على أكثرها وليدة المفارقة بين الحالات وليست وليدة الموافقة والمواءمة . وما أكثر المفارقات فى حياة المعسرين

ولعلنا نبلغ مقطع القول فى هذه الملاحظة حين نقول : ان الموسر اقدر على التسلية والمعسر أقدر على الفكاهة ، وبين التسلية والفكاهة فرق غير مجهول

رحم الله خالدا . انه كان جنديا وكفى !

لـكنه قد عوض فى جانبــه الواحد عن جوانب عدة فى الآخرين ، لانه قد رزق الجندية فى طرازها الأول ، ورزق منها وحده ما يكفى عشرة من جنود التاريخ المبرزين

نهاية من صنع القدر

المنظور ، فانه مات ولما يجاوز الخامسة والخمسين على أرجح تقدير ، وليست هى بالسن التى تنتهى بها الحياة بغيرمرض شـــديد • فان كان قد ألم به مرض عارض غير مميت فى جملة أطواره فلعله قد أتم ما بدأه الحزن على الأبناء ، والفتور من الراحة ، وذلك الاضـطراب الذى كان يفزعه فى نومه وينتقع منه لونه اذا غضب أو ثار

ولم يوجد فى بيته عند موته غير فرسه وغلامه وسـلاح وقفه للجهاد فى سبيل الله • فلما بلغ ذلك عمر قال : رحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظنناه به ••• ونكس مرارا وهو يسترجع كلما رفع رأسه • ثم قال : كان والله سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة

وقد كان حزن عمر عليه حزن قريب وحزن مسلم وحزن خليفة • قال لأمه : عزمت عليك ألا تبيتى حتى تسـودى يديك من الخضاب

واجتمع بنات عمه يبكين فقيل لعمر : أرسـل اليهن فانههن،فقال : «دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة • على مثل أبى سليمان تبكى البواكى »

ولما سئل عمر أن يعهـد بعد موته قال : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح ثم وليته ثم قدمت على ربى فقـال لى : لم استخلفته على أمة محمد ؟ لقلت : سمعت عبـدك وخليلك يقول : لكل أمة أمين وان أمين هذه الأمة أبو عبيـدة بن الجراح ، ولو أدركت خالدا ثم وليته ثم قدمت على ربى فقال لى : من استخلفت على أمة محمد ؟ لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول : لخالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين !

ولعمرى ان « سيف الله » قد استحق هذه التزكية وهو فى الغمد كما استحقها وهو مشهور

فليست سنوات العزلة بأخف السنوات وزنا فى سيرة خالد بن الوليد

فهرس

صفحة

البادية والحرب ٥

نشأة خالد واسلامه ٢٧

حروب الردة ٨٥

الفتوح ١٢٥

عبقريته الحربية ومفتاح شخصيته ١٧٩

نهاية من صنع القدر ٢٠١

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج انيق وطباعة متقنة ، وبثمن زهيد لايرهق احدا من عشاق القراءة والاطلاع .. وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

الكتاب	المؤلف	الموضوع
عبقرية محمد	عباس محمود العقاد	تحليل لشخصية النبى محمد صلى الله عليه وسلم
ماجلان : قاهر البحار	ستيفان زفايج	قصة طواف ماجلان حول الارض
هرون الرشيد	احمد امين بك	الحياة العامة والخاصة للخليفة هرون الرشيد
ابو الشهداء	عباس محمود العقاد	قصة استشهاد الامام الحسين رضى الله عنه
جنكيز خان	ف . بان	الحياة الحربية والسياسية لجنكيز خان
قلب النسر	اوكتاف اوبرى	قصة غرام نابليون وجوزفين

الكتاب	المؤلف	الموضوع
السيد عمر مكرم	محمد فريد أبو حديد بك	قصة حياة أول زعيم شعبى لمصر الحديثة
فاندى : الثائر القديس	لويس فيشر	قصة اشهر زعيم سياسى روحى فى الشرق
زعيم الثورة : سعد زغلول	عباس محمود العقاد	قصة الثورة فى حياة الزعيم الخالدسعد زغلول
الزعيم : احمد عرابى	عبد الرحمن الرافعى بك	لم يصدر بعد
بطلة كربلاء : زينب بنت الزهراء	الدكتورة « بنت الشاطىء »	قصة زينب بنتالزهراء ودورها فى معارك كربلاء
أشعب : امير الطفيليين	توفيق الحكيم بك	قصة أخف الطفيليينظلا والطفهم وأظرفهم نادرة
نفرتيتى	السيدة صوفى عبد الله	قصة ملكة مصر الفاتنة فى عصرها الذهبى التليد
حديث رمضان	الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى	تفسير بعض سور من القرآن الكريم

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من دار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية بشارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، واكشاك الصحف

وكلاء مجلات دار الهلال

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه — السور — العسيلي ·
المدخل الشمالي ص · ب ٥٤٢ بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعساني

حماه : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخله سكاف

حمص : السيد عبد السلام السباعي — ص · ب ٤٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن علي نحاس — ص · ب ٩٧

البحرين والخليج الفارسي : السيد مؤيد أحمد المؤيد — مكتبة المؤيد — البحرين

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi
Rua Varnhagem 30.
Caixa Postal 3766.
Sao Paulo. Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour. 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria. W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية
Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب من كتب التاريخ التى تروى حياة القواد رواية احصائية لتسجيل الأحداث التى عاصروها ، أو الفتوحات التى قاموا بها سواء أكانوا غزاة مصلحين أم جبابرة فاتحين ، بل هو دراسة فنية لبطل من أبطال الاسلام ، وعلم من أعلام التاريخ ، وعبقرى من عباقرة الحرب والسياسة

ولقد كانت حياة خالد بن الوليد عبرة الدنيا ، وكانت عبقريته الحربية والسياسية معجزة الأزمان ، حتى لقب بسيف الله المسلول ، لما أوتى من مواهب ليست للكثير من قواد العالم ، ولما هيأ الله على يديه من نصر مبين على أكبر دولتين فى عصره ، فرفع لواء الاسلام على عروش الأكاسرة ، وقلاع الرومان ، وكان أكبر فاتح فى الاسلام ، ومن أعظم قواد التاريخ

ولم يكن خالد بن الوليد قائد جيوش فقط قائد أخلاق . ففى هذه الدراسة القيمة التى تضمنها كتاب « عبقرية خالد » كشف دقيق لأسرار العبقرية فى أخلاق هذا القائد العظيم الذى تعد حياته ثروة نفيسة من عظمة المواهب وعظمة الاخلاق وقدوة صالحة للشباب الطامحين الذين يجدون فى حياته أحسن الدروس ، وأجمل الأمثال

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
0275259